شادي عبّود

431

العاشقون

A.S.

SR 19

مجنون ليلى
المرقش الأكبر وأسماء
المرقش الأصغر
وفاطمة بنت المنذر

http://wahetelkotob.com/

كتابنا للنشر

«العاشقون»

مجنون ليلى

و

المرقش الأكبر وأسماء

و

المرقش الأصغر وفاطمة بنت المنذر

مقدمة

تتضمَّن هذه السلسلة بأجزائها الأربعة، أخبار العشّاق العرب، وخاصَّةً قصص حبّهم، وما حُكي من أخبار مع حبيباتهم، كما تتضمَّن أجمل أشعارهم الغزليّة، سواء كانت هذه الأشعار من ضمن سياق أخبارهم، أو مُسْتقاة من دواوينهم الشعريّة، وقد تضمَّنت أخبار العاشقين التالية أسماؤهم:

1- الجزء الأول: مجنون ليلى، والمرقش الأكبر وأسماء، والمرقش الأصغر وفاطمة بنت المنذر.

2- الجزء الثاني: جميل بثينة، وقيس ولبنى، وعنترة وعبلة.

3- الجزء الثالث: كُثيِّر وعزَّة، وتوبة وليلى الأخيلية، وعروة وعفراء.

4- الجزء الرابع: عمر بن أبي ربيعة وعشيقاته، وعليا وعصام،

ومضاض ومي، وقصص أخرى.

وقد اخترنا الأخبار والأشعار اختياراً، بحيث لا يخدش أيّ منهما الحياء، ولا يُسيء إلى الأخلاق، بل يُظرِف، ويُسَلِّي، ويُمْتِع، ويُطلعنا على أخبار العشْق وأشعاره في تاريخنا العربي، ويُمْتع أذواقنا الأدبيّة بما سنثبته من أشعار غزليّة رائعة.

آمل أن تُعْجب هذه السلسلة أذواق القرّاء العرب، وأن يمضوا في قراءتها أوقاتاً لذيذة ومسلّية.

المؤلّف

أما واعَـذْتَـنِـي يـا قَـلـبُ أَنّـي

إذا ما تُبْتُ عَنْ لَيْلى تتُوبُ؟

فَـها أنا تائبٌ عَنْ حُبِّ لَيْلى

فَما لَكَ كُلَّما ذُكِرَتْ تذوبُ؟

* * *

يَقُولونَ لَيْلَى بِالعِراقِ مَريضةٌ

ألا لَيْتَنِي كنتُ الطّبيبَ المُداوِيا

وشابَ بنو ليلَى وشابَ بَنُو ابنِها

وحُرْقةُ لَيْلى فِي الفُؤادِ كما هيا

مجنون ليلى



مجنون ليلى

(...- 68هـ/ ...- 688م)

قيس بن الملوّح بن مزاحم العامري. شاعر غزل، من المتيّمين، من أهل نجد. لم يكن مجنوناً، وإنّما لُقّب بذلك لهيامه في حبّ «ليلى بنت سعد». قيل في قصّته: نشأ معها إلى أن كبرت وحجبها أبوها، فهام على وجهه ينشد الأشعار، ويأنس بالوحوش، فيُرى حيناً في الشام وحيناً في نجد، وحيناً في الحجاز، إلى أن وُجد ملقًى بين أحجار وهو ميت، فَحُمِل إلى أهله. وقد جُمع بعض شعره في «ديوان».

وصنَّف ابن المِبْرد (يوسف بن حسن الحنبلي ت 909هـ) كتاباً في أخباره سمّاه «بسط سامع المسامر في أخبار مجنون بني عامر»[1]. وكان الأصمعي ينكر وجوده، ويراه اسماً بلا مسمّى. والجاحظ يقول: ما ترك الناس شعراً مجهول القائل، فيه ذِكْر ليلى إلا نَسَبوه إلى المجنون. ويقول ابن الكلبي: حُدِّثت أنَّ حديث المجنون وشعره وَضَعَه فتًى من بني أمية كان يهوى ابنة عمّ له[2].

(1) نسب الزركلي هذا الكتاب لابن طولون المتوفى سنة 953هـ، وقد صدر الكتاب عن عالم الكتب في بيروت سنة 1994، بتحقيق الدكتور محمد ألتونجي، ونسبة الكتاب إلى ابن المبرد.

(2) الأعلام: خير الدين الزركلي 5/ 208- 209.

أخباره
كما جاءت في كتاب
«نزهة المسامر
في
أخبار مجنون بني عامر»

كان في بني عامرٍ جاريةٌ من أجملِ النساء، لها عقلٌ وأدبٌ، يقالُ لها ليلى بنتُ مَهدي، فبلغَ المجنونَ خبرُها، وما هيَ عليه منَ الجمال والعقل، وكان صَبًّا[1] بمحادثة النِّساء، فعمدَ إلى أحسنِ ثيابهِ، فلبسها وتهيَّأ. فلما جلسَ إليها، وتحدَّثَ بين يدَيْها، أعجبَتْه، ووقَعت بقلبهِ، فظلَّ يومَه ذاكَ يحدِّثها حتى أمسى[2]، فانصرفَ إلى أهلهِ بأطولِ ليلةٍ. حتى إذا أصبحَ مضى إليها، فلم يَزَلْ عندها حتى أمسى. ثم انصرف إلى أهلهِ، فباتَ بأطولَ من ليلتهِ الأولى. وجهِدَ أن يُغمضَ فلم يقدِرْ على ذلك، فأنشأ يقول:

نـهـاري نـهـارُ الـنّـاسِ حـتّـى إذا بَـدَا
لـيَ الـلـيـلُ هَـزَّتْـنـي إلـيـكِ الـمـضـاجـعُ[3]

أُقـضِّـي نَـهـاري بـالـحَـديـثِ وبـالـمُـنَـى
ويـجـمـعـنـي والـهـمَّ بـالـلّـيـل جـامـعُ

وأدامَ زيارَتها، وتركَ إتْيانَ كلِّ مَن كان يأتيهِ. فوقَعَ في قلبِها مثلُ الذي وقَعَ في قلبِه لها. فجاءَ يوماً يحدِّثُها، فجعلتْ تُعْرِضُ عنه[4]، وتُقبل على غيرهِ؛ تريدُ تمتحِنُه، وتعلَمُ ما لها في قلبهِ. فلما رأى ذلك منها اشتدَّ عليه، وجزَعَ. فلما خافَتْ عليه أقبلَتْ عليه فقالتْ:

---

(1) الصب: ذو الولع الشديد.

(2) حتى أمسى: حتى أتى عليه المساء.

(3) المضاجع: جمع المضجع، وهو الفراش.

(4) تعرض عنه: تتجنّبه.

كِـلانـا مُـظْـهِـرٌ لـلـنّـاس بُـغْـضـاً
وكـلٌّ عـنـدَ صـاحـبِـهِ مَـكـيـنُ

فسُرِّي عنه، فقالتْ: إنَّما أردتُ أنْ أمتحِنَكَ، والذي لكَ عندي أكثرُ من الذي لي عندَكَ، وأنا مُعطيةٌ اللهَ عَهْداً إنْ أنا جالستُ بعدَ يومي هذا رجلاً سواك حتى أذوقَ الموتَ، إلا أن أُكْرَهَ على ذلك. فانصرفَ وهو أسَرُّ الناسِ، فأنشأ يقول:

أَظُـنُّ هـواهـا تـارِكـي بـمِـضَـلَّـةٍ
مـن الأرض لا مـالٌ لـديَّ ولا أهـلُ[1]

ولا أحـدٌ أُفـضـي إلـيـه وَصِـيَّـتـي
ولا صـاحـبٌ إلا الـمـطـيَّـةُ والـرَّحْـلُ
مَـحَـا حُـبُّـهـا حُـبَّ الأُلـى كُـنَّ قبـلـهـا
وحَـلَّـتْ مكـانـا لـم يكـن حُـلَّ مِنْ قبـلُ

وقيل: إنّ المجنونَ علِقَ ليلى علاقةَ الصَّبيِّ. وذلك أنّهما كانا صغيرَينِ يَرْعَيَان أغناماً لقومِهما، فعلِقَ كلٌّ واحدٍ منهُما صاحبَهُ. إلا أنَّ المجنونَ كان أكبرَ منهما، فلم يزالا على ذلك حتى كَبِرا، فلما عَلموا بِأمْرِهما حُجبت ليلى عنه، فزالَ عقلُه، وفي ذلك يقول:

تـعَـلَّـقـتُ لَـيْـلَـى وهْـيَ ذاتُ ذُؤابَـةٍ[2]
ولـم يَـبْـدُ لِـلأتـرابِ مـن ثَـدْيـهـا حَـجْـمُ

(1) المضلَّة: المكان الذي يضلّ الإنسان فيه الطريق.

(2) الذؤابة: الشعر المضفور من شعر الرأس.

صَغِيرَيْنِ نَرْعَى البَهْمَ يا لَيْتَ أَنَّنا
إلى اليومِ لَمْ نَكْبَرْ ولم تَكْبَرِ البَهْمُ[1]

وقيل: كانَ المجنونُ مِن ولدِ أبي بكرِ بنِ كلابٍ، فأتى عليه عصرٌ من الدَّهر لا يَعرفُ ليلى، ثم عشِقَها، فخطَبَها، فلم يُزَوِّجوهُ، فاشتدَّ حالُه، وزادَ ما كان يجدُه، وفشا أمرُه في الناسِ، فلقِيَه ابنُ عمٍّ له، فقالَ: يا أخي اتَّقِ الله في نفسِكَ، فإنَّ هذا الذي أنتَ فيه من عَمَلِ الشيطانِ، فازْجُرْهُ عنك، فأنشأ يقولُ:

يـا حـبَّـذا عـمـلُ الـشَّـيـطـانِ مـن عَـمـلِ
إنْ كـانَ مـن عـمـلِ الـشَّـيـطـانِ حُـبِّـيـهـا
مَـنَّـيْـتُـهـا الـنَّـفـسَ حـتّـى قـد أضـرَّ بِـهـا
وأحْـدَثَـتْ خُـلـفًـا مـمّـا أمـنِّـيـهـا[2]

وقد ذكر بعضُهم أنَّ قيساً خرجَ قبلَ عشقِه ليلى، فمرَّ بامرأةٍ من بني عَقيلٍ، وكانت امرأةً عاقلةً، وكان بناتُ الحيِّ يجلسْنَ عندها ويتحدَّثْنَ ويُنْشِدْنَ الأشعارَ، فلما رأتْ قيساً دَعَتْه إلى النزولِ عندَها، فنزلَ قيسٌ عندهُنَّ، وتحدّث معهُنَّ، وأنشدَهُنَّ، وقد عَجِبْنَ من فَصاحتِه، وإذا ليلى بنتُ مالك قد أقبلتْ، فلما رآها قيسٌ فُتِنَ بها. فلمَّا رأتْه تلك المرأةُ كذلك قالتْ: ما بالُك يا قيسُ قد ضَلَّ عقلُكَ؟ فقال: مَن رأى مثلَ هذهِ الصُّورة كيفَ لا يضِلُّ عقلُه؟ فسألتْ تلك المرأةُ ليلى أن تجلسَ معهُنَّ، ففعلَتْ. فانحرَفَ قيسٌ، وباتَ بأطولِ ليلةٍ. فلما أصبحَ مضى وجلسَ إليهن، ثم جاءَ فتىً من حيِّ ليلى، فأقبلتْ عليهِ ليلى، وتركتْ قيساً، وكادَتْ نفسُه تذهَبُ، فلما مَضى أنشد قيسُ:

(1) البهم: أولاد البقر والماعز والضان.

(2) الخلف: خلاف المأمول.

أأعـقـرُ مـن جَـرًّا كـريـمَـةَ نـاقـتـي
وَوَصْـلـيَ مَـفْـروشٌ لـوَصْـلِ مُـنـازِلِ؟
إذا جـاءَ قـعـقـعْـنَ الـحُـلِـيِّ ولـم أكـن
إذا جـئـتُ أرضـى صـوتَ تـلـك الـخَـلاخـلِ
ولـم تُـغْـنِ عَـنّـي بُـردتِـي وتَـجَـمُّـلـي
وقَـوْمِـي وَنَـسْـلِـي مـن كِـرامٍ أفـاضِـلِ
وإنّـيَ مـن إعـراضِـهـا مُـتـألِّـمٌ
قـلـيـلُ الْـعَـزَا والـصَّـدُّ لا شَـكَّ قـاتِـلـي

فلما قالَ ذلك، قالت:

كِـلانـا مُـظـهـرٌ لـلـنّـاسِ بُـغـضًـا
وكُـلٌّ عـنـدَ صـاحِـبِـهِ مَـكـيـنُ
ونَـدفَـعُ بـالـتـجـمُّـلِ ضِـغـنَ قَـومٍ
وفـي الأحـشـاءِ مـنـكَ هـوًى دَفـيـنُ[1]
ونُـظـهِـرُ جَـفْـوةً مِـنْ غـيـرِ حـقْـدٍ
وحـبُّـكَ فـي فُـؤادِي مـا يَـبِـيـنُ[2]
فـطِـبْ نـفْـسـاً بـذاكَ وقُـرَّ عَـيـنًـا
فـإنَّ هـواكَ فـي قَـلْـبِـي مَـصُـونُ[3]

فلمّا سَمعَ ذلك، فرحَ ورجِعتْ نفسُه. فلم يزَلْ معهنَّ حتى أمسى، ثم ذهبَ، فباتَ بأطولِ ليلةٍ، وجهِدَ أن ينامَ فلم يقدرْ، فأنشأ يقولُ:

---

(1) الضغن: الحقد.

(2) يبين: يظهر.

(3) قرّت عينه: بردت سروراً.

نهاري نهارُ النّاسِ حتّى إذا بَدَا
لِيَ الليلُ هَزَّتني إليكِ المضاجعُ

أُقضّي نهاري بالحديث وبالمُنَى
ويجمَعُني والهمَّ باللّيل جامعُ

لقد ثَبَتَتْ في القلْب منكِ محبَّةٌ
كما ثبتَتْ في الرّاحتَيْنِ الأصابعُ
ولو كان هذا موضعَ العتْبِ لاشتَفى
فؤادي ولكنْ للعِتابِ مواضِعُ
وأنتِ التي صَيَّرتِ جسمي زجاجةً
تَنمُّ على ما تحتويه الأضالعُ(1)

أتطمعُ من ليلى بوصلٍ وإنّما
تُضَرَّبُ أعناقَ الرّجالِ المطامعُ

فلما أصبحَ غدا، فوجدَها مع أمِّها، فلم تقدِرْ على أن تكلمَه، فأنشأ يقولُ:

أَظنُّ هواها تاركي بمَضَلَّةٍ
من الأرضِ لا مالٌ لديَ ولا أهلُ
ولا صاحِبٌ أشكو إليهِ بَلِيَّتِي
ولا وارثٌ إلّا المطيَّةُ والرَّحْلُ

---

(1) تنمّ: تكشف.

مَحا حبُّها حبَّ الأُلى كُنَّ قَبلَها
وحَلَّتْ مكانًا لَم يكنْ حُلَّ مِن قبلُ
فحبِّي لها حبٌّ تمكَّنَ في الحَشا
فَما إن أرى حبًّا يكونُ لهُ مِثلُ

فرجعَ وفي نفسهِ أشدُّ من ذلك. ثم استمرَّ به الحالُ في ذكرِها.

* * *

في تزايُدِ أمرِهِ وقلَّةِ صبرِه وكثرةِ ذكرِهِ

قال أبو عبيدةَ: كانَ المجنونُ يجلسُ في نادي قومِهِ وهم يتحدَّثون، فيُقبلُ عليه بعضُ القومِ، فيحدِّثه وهو باهِتٌ ينظرُ إليه ولا يَفهمُ ما يحدِّثُه به، ثم يثوبُ عقلُه، فيُسألُ عن الحديث فلا يَعرِفُه. فحدَّثَه مرةً بعضُ أهلِهِ بحديثٍ، ثم سألَهُ عنه في غدٍ فلم يعرِفْه، فقالَ: إنَّكَ لمجنونٌ، فقالَ:

إنِّـي لأجـلـسُ فـي الـنّـادي أُحـدِّثُـهُـمْ
فـأسـتـفـيـقُ وقـد غـالَـتْـنِـيَ الـغُـولُ[1]

يُـهْـوِي بـقـلـبـي حـديـثُ الـنّـفـسِ نـحـوَكُـمُ
حـتّـى يـقـولَ جـلـيـسـي أنْـتَ مَـخْـبُـولُ

فتزايد الأمرُ به حتى فَقَدَ عقلَه، وكان لا يقَرُّ في موضع ولا يُؤويهِ رحْلٌ، ولا يعلوهُ ثوبٌ إلا مزَّقه. وصارَ لا يَفْهمُ شيئاً مما يُكلَّمُ به، إلاّ أنْ تُذكَرَ له ليلى، فإذا ذُكرتْ أتى بالباديةِ ورجعَ عقلُه.

وذَكرَ مَن لا يوثَقُ به أن قيساً ذهبَ إلى ليلى، وقد شَعروا ببعضِ أمرِهِ، فرأته ليلى ولم تقدِرْ على القيامِ إليه، فبكَتْ فأنشأ يقول:

أيـا لـيـلَ بَـكِّـي لـي بـعـيـنـيـكِ رحـمـةً
مـن الـوَجْـد، مـمّـا تـعـلـمـيـن، وأعـلَـمُ

(1) الغول: المهلكة والداهية.

ألـيـس عـجـيـبـاً أنْ نـكـونَ بـبـلـدةٍ
كِـلانـا بـهـا يَـشْـقـى ولا نـتـكـلَّـمُ
لَـئِـنْ كـان مـا ألـقـى مِـنَ الـحُـبِّ أنّـنـي
بـه كَـلِـفٌ جَـمٌّ الـصَّـبـابـةِ مُـغـرَمُ[1]
لـعـلَّـكِ أنْ تَـرْثِـي لـعَـبْـدٍ مُـتَـيَّـمٍ
فَـمِـثْـلُـكِ يـا لـيـلـى يَـرِقُّ ويَـرْحَـمُ
بـكـى لِـيَ يـا لـيـلـى الـضَّـمـيـرُ وإنّـه
لَـيَـبْـكِـي بـمـا يَـلْـقـى الـفـؤادُ ويَـعـلـمُ

فلما اشتُهر أمرُه، حُجبتْ، ولامَ قيسٌ أهله على ذلك، فصبرَ عن زيارَتِها أياماً، ثمَّ سارَ إليها، وهو يُنْشِدُ:

ألا أيُّـهـا الـقَـلْـبُ الـلَّـجـوجُ الـمُـعَـذَّلُ
أفِـقْ عَـنْ طِـلابِ الْـبِـيـضِ إنْ كُـنْـتَ تَـعْـقِـلُ[2]
أفِـقْ قَـدْ أفـاقَ الـعـاشِـقـونَ مِـنَ الـهـوى
وأنْـتَ بـلـيـلـى هـائـمُ الـقـلـبِ مُـتْـبَـلُ[3]
وقـد زَعَـمَـتْ لـيـلـى بـأنّـي سَـلَـوْتُـهـا[4]
وأنَّ سِـواهـا حُـبُّـه لِـي مُـكـمَّـلُ
فـقـلْـتُ لـهـا يـا لـيْـلَ والله إنّـنـي
لأوفـي بـعـهـدي فـي الـجـمـيـل وأفْـضِـلُ

---

(1) الجمّ: الكثير. الصبابة: الولع الشديد.
(2) الطلاب: المطالبة.
(3) المتبَّل: الذي أسقمه الحب.
(4) سلوتها: نسيتها.

هَبِي أنّني أذنبْتُ ذنباً جهلْتُه
ولم آتِه عَمْداً وذو الجَهْل يَجْهَلُ
فقد تُبْتُ من ذنبي إليكِ فها اقْبَلِي
ومثلي إذا ما تاب مثلُك يَقْبَلُ
اهيمُ بكُم في كلّ يومٍ وليلةٍ
جُنوناً وجِسمي بالسَّقامِ مُوكَّلُ

ثمّ سارَ حتى جاءَ منزلَهُم، فلم يجدْهُم، فجعلَ يقبّلُ الأرضَ ويقول:

أَبوسُ ترابَ رِجلِكِ يا لَوَيْلِي
ولَولا ذاكَ لاَ أُدْعَى مُصابا
وما بَوسُ التُراب لِحُبِّ أرْضٍ
ولكِنْ حبُّ مَنْ وَطِىءَ التُرابا

ثم صوَّرَ صورةً في التراب، وجعلَ يعاتبُها ويقول:

أُصَوِّرُ صُورَةً فِي التُرْبِ مِنْها
وأَبْكِي إنَّ قلْبِي في عَذابِ
وَأَشْكو هَجرَها مِنها إليها
شِكَايَةَ مُذنَفٍ عَظِمِ المُصَابِ[1]
وَأَشْكو مَا لَقِيتُ وَكُلَّ وَجْدٍ
غراماً بالشِكايَةِ للتُرابِ

* * *

(1) المدنف: الشديد المرض.

في ذكرِ عزمِهم على تَزويجهِ بغيرها لعلَّ يذهبُ طيرُه عن طيرِها

لما كثر ذكرُ المجنون لليلى، واشْتُهر أمرُه، اجتمعَ إلى أبيهِ أهلُه - وكان سَيِّداً - فقالوا له: زَوِّجْ قَيساً، فإنه سيكُفُّ عن ذكرِ ليلى ويَنْساها. فعرضَ عليه أبوهُ التَّزويجَ فأبى، وقال: لا حاجةَ بي إلى ذلك. وأتى ليلى بعضُ فتيانِ الحيِّ ممن كان يحسُدُ قيساً ويُعاديهِ، فأخبرها أنه عَزَمَ على أن يتزوَّجَ. وجاءَ المجنونُ كما كانَ يجيءُ، فحجبَتْه ولم تَظهَرْ له، فرجعَ وهو يقولُ:

فَوالله ما أدري عَلامَ هَجَرْتِني
وَأيَّ أُمُورِي فِيكِ يَا لَيْلَ أرْكَبُ؟
أأقْطَعُ حَبْلَ الْوَصْلِ، فالموْتُ دُونَه
أَمَ أشْرَبُ رَنْقًا مِنْكُمُ ليس يُشْرَبُ؟
أمَ أهْرُبُ حتَّى لا أرَى لي مُجَاوِراً
أَمَ أفْعَلُ ماذا؟ أمْ أبُوحُ فَأُغْلَبُ؟
فَوالله ما أدرِي وَإنِّي لَدائبٌ
أُفَكِّرُ ما جُرْمي إليها فَأعْجَبُ

قالَ: فبلَغها قولُه، فأنشأتْ تقولُ: صدَقَ والله قيسٌ حينَ يقولُ:

ومَنْ يُطِعِ الواشِينَ لا يَتْركوا لَهُ
صَديقاً وإنْ كانَ الحبيبَ المقرَّبا

وذكرَ بعضُهم أنه قالَ: أنا أزوِّجُك أشرفَ منها وأحسَنَ فبكى، وأنشأ يقولُ:

لِليلى على قَلْبي منَ الحُبِّ حاجزٌ
مُقيمٌ، ولكنَّ الفُراقَ عظيمُ
فواحِدةٌ تبكي من الهَجْرِ والقِلَى
وأُخرى لَها شَجْوٌ بِها وتَهيمُ[1]
إلى الله أشكو حُبَّ ليلى كما شكا
إلى الله فَقْدَ الوالدَيْنِ يتيمُ
يتيمٌ جفاه الأقربون فعَظْمُهُ
ضَعيفٌ وعَهْدُ الوالدَيْنِ قديمُ
وإنَّ زماناً فرّق الهَجْر بَيْنَنا
وبَيْنكِ يا لَيلى فَذاكَ ذَمِيمُ

* * *

(1) القلى: البغض. الشجو: الحزن.

في ذكر خروجِهم به إلى مكةَ ليذهبَ بكلفهِ، ويقِلَّ ولهُه فازدادَ وما وقعَ له منَ الاتفاق في ذلك النّادي

ولما ظَهر منَ المجنونِ ما ظهَرَ، ورأى قومُه ما ابتُليَ به، اجتمعوا إلى أبيهِ، وقالوا له: يا هذا! قد تَرى ما ابتُليَ به ابنُكُ، فلو خرجْتَ به إلى مكةَ، فعاذَ[1] ببيتِ الله، وزارَ قبرَ النبي ﷺ، ودَعا الله عزَّ وجلَّ رَجَونا أن يرجِعَ عقلُه ويُعافِيَهُ الله. فخرجَ أبوهُ حتى أتى مكةَ، فجعلَ يطوفُ به، ويَدعو الله لهُ بالعافِية، وهو يقولُ:

دعـا الـمُـحـرِمـونَ الله يَـسْـتَـغْـفِـرونَـهُ
بِـمـكَّـة وهْـنـاً[2] أن تُـمَـحّـى ذُنُـوبُـهـا
ونـــاديـــتُ أنْ يـــا ربّ أوّلُ سُـــؤلَـــتـــي
لـنـفـسـيَ لـيـلـى ثُـمَّ أنـتَ حَـسـيـبُـهـا
فـإنْ أُعْـطَ لـيـلـى فـي حـيـاتـيَ لا يَـتُـبْ
إلـــى الله خـــلْـــقٌ تـــوبـــةً لا أتُـــوبُـــهـــا

حتى إذا كان بمنى نادى منادٍ من بعضِ تلك الخيام: يا ليلى! فخرَّ قيسٌ

---

(1) عاذ: لجأ.

(2) الوهن: نحو منتصف الليل.

مَغْشيًّا عليهِ، واجتمعَ الناسُ حوله، ونَضَحوا على وجههِ الماءَ، وأبوهُ يبكي عندَ رأسهِ. ثم أفاقَ وهو يقولُ:

وَدَاعٍ دَعَا إذ نَحْنُ بالخَيْفِ مِنْ مِنى[1]
فَهَيَّجَ أحْزَانَ الفُؤَادِ وَلَمْ يَدْرِ

دَعَا بِاسْمِ لَيْلَى غَيْرَها فَكَأَنَّما
أطَارَ بِلَيْلَى طائِراً كانَ في صَدْرِي

وحدَّث بعضُ المشايخ، قالَ: خرجتُ حاجًّا، حتى إذا كنتُ بمنى إذا جماعةٌ على جبلٍ من تلك الجبالِ، فصعدتُ إليهم، فإذا معَهُم فتًى أبيضُ حسنُ الوجه، وقد علاهُ الصَّفارُ، وبدنَهُ ناحِلٌ، وهم يُمْسِكونه، قال: فسألتُهُم عنه، فقالوا: هذا قيسٌ الذي يقال لهُ: «المجنون»، خرَجَ بهِ أبوهُ لِما بُلِيَ به، يستجيرُ له ببيتِ الله الحرام، وقبرِ محمَّدٍ عليه السلام، فلعلَّ الله أنْ يعافِيَهُ.

قال: فقلتُ لهم: فما لكُم تُمسكونَه؟

قالوا: نخافُ أنْ يَجْنيَ على نفسِه جنايةً تُتلفُه.

قالَ: وهو يقولُ: دَعوني أتنسَّمْ صَبا[2] نجدٍ. فقالَ لي بعضُهم: ليس يعرفُك، فلو شئتَ دنوتَ منه فأخبرتَهُ أنك قدمتَ من نجدٍ فأخبرتَه عنها.

قلتُ: نعم أفعلُ. فدنوتُ منه، فقالوا له: يا قيسُ! هذا رجلٌ قدمَ من نجدٍ. قالَ: فتنفَّسَ الصُّعَداءَ[3]، حتى ظننتُ أنَّ كبدَه قد تصدَّعتْ. ثم جعلَ يسألني عن موضعٍ موضعٍ ووادٍ وادٍ، وأنا أخبرُه وهو يبكي، ثم أنشأ يقول:

(1) الخيف: ما انحدر من غِلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء.

(2) الصبا: ريح خفيفة.

(3) تنفَّس الصعداء: تنفَّس تنفُّساً طويلاً.

ألا حبّذا نجدٌ وطيبُ ترابِهِ
وأرواحُه إنّ كانَ نجدٌ على العَهْدِ

وأنشد بعضهم للمجنون:

إذا الحَجّاجُ لمْ يَقِفُوا بِليلى
فلَسْتُ أرى لحَجّهمُ تَماما
تمامُ الحَجِّ أنْ تَقِفَ المَطايا
على ليلى وتُقْرِيها السَّلاما[1]

* * *

(1) تقري السلام: تبلّغه السلام.

في ذكرِ منعهِ من مُحادثتها والاجتماعِ بها

لما تَشبَّثَ المجنونُ بليلى، وشُهر بحبِّها، اجتمعَ إليه أهلُها، فمنعوه من مُحادَثَتِها وزيارَتِها، وتَهدَّدوه، وَوَعَدوه بالقتلِ. وكانَ يأتي امرأةً، فَتعرِفُ لهُ خبرَها، فَنَهوْا تلكَ المرأةَ عن ذلك، فكانَ يأتي غَفلاتِ الحيِّ في الليلِ. فلما كثُرَ ذلك خرجَ أبو ليلى ومعَه نفرٌ من قومِه إلى مَروانَ بن الحكم يَشكو إليهِ ما يَنالُهُم من قيس بن الملوَّح، وسألوهُ الكتَابَ إلى عاملِه عليهم بمنعهِ من كلامِ ليلى. فكتبَ لهم مروانُ كتاباً إلى عامله يأمرُه أن يُحضِرَ قيساً، ويتقدَّم إليهِ في تركِ زيارةِ ليلى، فإنْ أصابَه أهلُها عندَهُم، فقد أهدَرَ دمَه.

فلما وردَ الكتَابُ على عاملِه بعثَ إلى قيسٍ وأبيه وأهل بيتِه، فجمعَهم، وقَرأ عليهم الكتابَ الذي من مروانَ، وقالَ لقيس: اتَّقِ الله في نفسِكَ لا يذهَبْ دمُك هَدْراً. فانصرفَ قيسٌ وهوَ يقولُ:

ألا حُـجِـبَـتْ لـيـلـى وآلـى أمـيـرُهـا
عَـلـيَّ يَـمـيـنـاً جـاهِـدًا لا أزورُهـا
وأوْعَـدَنـي فـيـهـا رجـالٌ أبـوهُـمُ
أبـي وأبـوهـا خُـشِّـنـتْ لـي صُـدُورُهـا[1]
عـلـى غـيـرِ شـيءٍ غـيـرَ أنّـي أحِـبُّـهـا
وأنَّ فـؤادِي عـنـدَ لَـيـلـى أسِـيـرُهـا

---

(1) أوعدني: هددني.

فلما يئسَ منها، وعلمَ أنْ لا سبيلَ إليها صارَ شَبِيهاً بالتَّائه العَقلِ، وأحبَّ الخلوةَ، وحدَّثَ النفسَ. وتزايدَ الأمرُ بِه حتى ذهبَ عقلُه، ولعبَ بالحصى والتُّرابِ. ولم يكُنْ يعرفُ شيئاً إلا ذكرَها، وقولَ الشِّعرِ فيها. وبلغَها ما صارَ إليه قيسٌ، فجزِعَتْ أيضاً لفراقِهِ، وضَنيتْ ضَناءً شديداً.

لَقد حَجبوا لَيْلى وآلى أميرُها
عليَّ يميناً برَّةً لا أزورُها
فكيفَ وقَلبي في هَواها مُوَكَّلٌ
وقد فاضَ مِن أجفانِ عَيْني غزيرُها؟
وفيها جفاني كلُّ إلفٍ وصاحبٍ
فيا ليتَ شِعري ما يكونُ مصيرُها؟
وكنتُ إذا ما جئتُ ليلى تَبَرقَعَتْ[1]
فقد رابَني[2] منها الغداةَ سُفُورُها؟
وما أسفرتْ إلّا وقد باتَ أهلُها
على عَجَلٍ منِّي وهذا نَذيرُها
وأوْعَدني فيها رجالٌ أعِزُّهُمْ
أبي وأبوها فاسْتَقَلَّتْ صدورُها
على غيرِ ذنبٍ غيرَ أنِّي أحبُّها
وأنَّ فوادي عندَ ليلى أسيرُها
وقدْ عوَّضَتْني بالوِصالِ قطيعةً
فيا ليتَ شِعري ما يكونُ أخيرُها

(1) تبرقعت: وضعت البرقع (القناع) على وجهها.

(2) رابني: أوقعني في الريبة، وهي الشك.

في ذكرِ احتيالهِ ليراها، فلما رُدَّت عليهِ حيَلُه، كثُر على ذلك عمله

استعملَ مروان بن الحكم رجلاً من قيسٍ على صدَقاتِ كعبِ بن ربيعةَ بن عامرٍ، فسمعَ بخبرِ قيسِ بن مُعاذ، وهو مجنون بني عامر، فأمرَ أن يُؤتى به، فسأله عن حالِه، واسْتَنْشَده فأنْشَده، فأُعجبَ بهِ، وقالَ له الْزمْني، فلكَ أن أحتالَ لكَ في أمرِ ليلى حتى أجمع بينَك وبينَها. فكان يأتيه فيتحَدَّث إليه، وكان لِبَني عامرٍ مجتمعٌ يجتمعونَ به في كلِّ سَنةٍ، وكانَ الوالي يخرجُ مَعهُم ذلكَ المجمَّع لئلا يكونَ بينَهُم اختلافٌ. فحضَر الوقتُ. فقالَ قيسٌ للوالي: أتأذَنُ لي في الخروجِ معك إلى هذا المجمَّع؟ فأذِنَ له. فلمَّا عزمَ على الخروج جاءَ قومٌ من رهطِ قيس، فقالوا له: إنَّما سألَكَ الخروجَ مَعَك ليرى ليلى ويكلِّمَها، وقد استُعدِيَ عليه بعضُ أهلها، وأهدَرَ لهم السلطانُ دمه إنْ أتاهُم. فلما قالوا له ذلكَ، منعَهُ منَ الخروجِ معه، وأمرَ له بقلائص[1] من إبل الصَّدقةِ، فردَّها وأبى أن يَقبلَها، وأنشأ يقول:

رددتُ قـــلائـــصَ الـــقـــرشـــيِّ لـــمّـــا
بـــدا لـــي الـــنـــقـــضُ مـــنْـــه لـــلـــعُـــهـــودِ
وراحـــوا مُـــقْـــصـــدِيـــنَ وخَـــلَّـــفـــونـــي
إلـــى حُـــزنٍ أعـــالـــجُـــهُ شَـــديـــدِ

(1) القلائص: مفردها القلوص، وهي الناقة الفتية.

فلما علمَ قيسُ بنُ مُعاذ أنّه قد مُنع، وأنه لا سَبيلَ إليها، ذهبَ عقلُه، وصارَ لا يلبسُ ثوباً إلا مزَّقَه، وهامَ على وجههِ عُرياناً لا يعقلُ شَيئاً ممَّا يُكلَّم به، ولا يُصلي. فلمّا رآه أبوه وما يصنعُ بنفسه خافَ عليه التَّلفَ، فحبسَهُ وقيَّدَه، فجَعَلَ يأكلُ لحمَه، ويضربُ بنفسهِ الأرضَ. فلمَّا رأى ذلك أبوهُ حلَّ قيْدَه، وخلاَّه. فكانَ يدورُ في فيافِيهم[1] عُرياناً، ويلعبُ بالتُّرابِ، وكانت له رابَّةٌ[2] لم يكنْ يأنسُ بأحدٍ غيرها، وكانت تأتيهِ في كلِّ يومٍ برغيفٍ وماءٍ، فتضعهُ بينَ يديهِ، فربَّما أكلَه، وربَّما تَرَكَه ولم يأكُلْه.

وذكرَ بعضُهم أنَّ مروانَ بنَ الحكم اسْتَخدمَ رجلاً من قريشٍ يقالُ له عَمرُو ابنُ نَوفلٍ على صَدقاتِ بَني عامرٍ، فأتاه المجنونُ، فامتدحَه بأبياتٍ منَ الشِّعر، وجالسَهُ، وحادَثه، فطابَ له حديثُه، وأعجَبه شِعرُهُ، وكساه كُسْوةً حسَنَةً، وأمرَهُ بالمُقامِ عندَه، فأقَامَ عندَه ثلاثَة أيامٍ. وأرادَ عَمرُو بنُ نَوفلٍ الخروجَ إلى بني عامرٍ، فقالَ له قيسٌ: إني أريدُ الخروجَ معك.

فقالَ: نعم.

فأتاهُ رهطٌ قيسٍ وقالوا لهُ: إنَّ في الأحياءِ جاريةً يقالُ لها ليلى، وهو يحبُّها، وقد أهدَرَ لهم دمَه أميرُ المؤمنين[3]، فإنْ أخذْتَه شاركْتَ في إثمهِ. ثمّ وهبَ للمجنونِ إبلاً، فردَّها عليه، وتركَه ولم يأخُذه معه.

فخرجَ في البريةِ. ثمَّ إنَّ مروانَ عزَلَ عمراً، وولَّى نوفلَ بن مُساحِق، فأتى على قيسٍ وقالَ: يا قيسُ! لقد بلغَ منك الحبُّ مَبْلغاً عظيماً، وما أظنُّ بلغَ بأحدٍ ما بلغَ بكَ.

---

(1) الفيافي، البراري.

(2) الرابَّة: زوجة الأب.

(3) يريد مروان بن الحكم.

قال قيسٌ: وسيبلغ بي أكثرَ مِن هذا. فلم يَزلْ نوفَلٌ يؤانسُه حتى أنِسَ بِه. ثم جعَلَ يَشْكو لنوفلٍ ما يجدُه مِن ليلى، وما أهدَرَ أميرُ المؤمنينَ من دمِهِ، فأمرَ له بكُسوةٍ حسنةٍ وثيابٍ من أثوابِه، وسألَهُ قَبولَها، فقَبِلَها قيسٌ، ولبِسَها. وقالَ لهُ: تريدُ أنْ أزوِّجَك بليلى عاجِلاً؟

قال: إيْ والله، ومَن لي بهذا؟

فقالَ: انطلق إلى عند أبيها حتى أخطِبَها لك، وأرغِّبه في المهر.

فقالَ قيسٌ: وتفعلُ يا ابنَ عمٍّ؟ فقال: إيْ والله لأفعلَنَّ، ولو أنَّ فيهِ تلافَ نفسي. قالَ: فشكَرهُ ومدحَه بأبياتٍ، وقال له: بالله سمِّعني ما قلتَ في ليلى! فأنشدَ:

إنّـي لأجـلـسُ فـي الـنـادي أحـدِّثُـهـم
فـأسْـتَـفـيـقُ وقـد غـالَـتْـنـيَ الـغـولُ
يَـغـشـى بـقـلْـبـي حديـثُ النَّـفْـسِ عـنـدَهُـمُ
حتَّـى يـقـولَ حَـبـيـبي: أنـتَ مـخـبـولُ[1]
لـيـلـى هِـيَ الـبـدرُ مـا لـي قـطُّ مُـصْـطَـبَـرٌ
عـنـهـا وإن كـثُـرتْ فـيـهـا الأقـاويـلُ
زَهـا بِـهـا الـعـقـلُ لا بـكـرٌ ولا نَـصَـفٌ
شَـبـيـهـةُ الـبـدرِ لا قِـصَـرٌ ولا طُـولُ

ثم سارَ بقيسٍ طالباً إتيانَ ليلى، فبلغَ أهلَها، فركبوا خيولَهُم يريدون الحربَ. فلما رآهُم قال: ما بالُكُم؟!

قالوا: يا نوفلُ! تريدُ أن تُلبسَنا عاراً؟ لا تفعلْ ذلك أبداً أو نموتَ. ثم

(1) مخبول: مجنون.

كلَّمَهم ووعَظَهم، فأبَوا. وكانَ العربُ لا يُزوِّجون امرأةً ممَّن اشْتُهر بعِشْقِها: فلما رأى نوفلٌ ذلك قال: قد رأيتَ يا قيسُ، وبالرُّغم مني ذلك.

فقالَ قيسٌ: والله ما وَفَيتَ لي بوعدٍ. فتركَه وجعلَ يهجوهُ ويقولُ:

وَعارٍ مِنَ الأرياشِ كاسٍ مِنَ الهوى
مِنَ المالِ مِغدامٍ لئيمِ الخلائقِ
تُرى هلْ أتى ليلى بعَزْمةِ صادقٍ
كما هاجَ بي مِن نَوفلِ بنِ مُساحِقِ؟
رأى خيفةً في الناسِ منه على الرَّجا
ألمَّ بقلبٍ مُستَطارِ الخَوافِقِ
فمِنْ أجلِ هذا الحبِّ صرتَ كما أرى؟
فقلتُ: نعمْ والحبُّ مرُّ المَذائقِ
سأُفضي إلى سُبلِ الهلاكِ وإنَّني
لمحتَسِبٌ راضٍ مَشيئةَ خالقي...
فَللهِ قلبٌ في الهوى ذو صَبابةٍ
ولله قلبٌ مِن مَشُوقٍ وشائقِ
سَأصْبرُ للمقدورِ يا أمَّ مالكٍ
وأعلمُ أنَّ الصَّبرَ مرُّ المذائِقِ

* * *

فِي ذكرِ عَودِ نفسه إليهِ عندَ رؤياها، ورجوعِ عقلِهِ عند ذكرِ حلاها

لما خلط قيسُ بنُ الملوَّح، وزالَ عقلُه، وامتنَعَ من الأكلِ والشُّربِ، صارَتْ أمُّه إلى ليلى، فقالتْ لها: إنَّ ابْني جُنَّ مِن أَجلِك، وذَهَبَ حبُّكِ بعقلهِ، وقد امْتَنَع منَ الطَّعامِ والشَّرابِ، فإنْ رأيتِ أن تصيرِي معي إليهِ، فلعلَّه إذا رآكِ أنْ يسْكُنَ بعضُ ما يجدُ.

فقالتْ لها: أمَّا نَهاراً فما يمكِنُني ذاك، وإنْ علمَ أهلُ الماءِ[1] لم آمَنْهم على نفسي، ولكنْ سأَصِيرُ إليهِ في الليل.

فلما كانَ الليلُ صارَتْ إليهِ، وهو مطرقٌ يَهْذي، فقالتْ له: يا قيسُ إنَّ أمَّك تزعَمُ أنكَ جُنِنْتَ بسببي، وأصابَكَ ما أصابَكَ، قالَ: فرفعَ رأسَهُ، فنظرَ إليها وتنفَّسَ الصُّعداءَ، وأنشأ يقولُ:

قالتْ جُنِنْتَ على رأسي[2] فقلتُ لها
الحبُّ أعظمُ ممَّا بالمجانينِ

الحبُّ ليسَ يُفيقُ الدّهرَ صَاحِبُه
وإنَّما يُصرَعُ المجنونُ في الحينِ

---

(1) تريد: الذين يريدون الماء صباحاً أو مساءً.

(2) على رأسي: بسببي.

وفي رواية أخرى زيادة وهيَ:

لـو تـعـلـميـنَ إذا مـا غـبـتِ مـا سَـقَـمـي
وكـيـفَ تَـسـهـرُ عَـيْـنـي لـمْ تَـلـومـيـنـي

وحدَّث ابنُ عائشةَ عن أبيه، قالَ: وُلِّيَ نوفلُ بنُ مُساحِقٍ صَدَقَاتِ كعبِ ابن ربيعةَ، فنزلَ بجمعٍ من تلك المجامعِ، فرأى قيسَ بنَ مُعاذٍ المجنونَ وهو يلعبُ بالتُّرابِ، فدنا منه وكلَّمَه، فجعلَ يجيبُهُ بخلافِ ما سألَهُ عنه، فقالَ لهُ رجلٌ من أهلهِ: إنْ أردتَ أن يكلِّمكَ كلاماً صحيحاً فاذكُرْ له ليلى.

فقالَ له نوفلٌ: أتحبُّ ليلى؟

قالَ: نعم.

قالَ: فحدِّثني حديثَكَ معَها. قالَ: جعلَ ينشِدُه شعرَه فيها، فأنشأ يقول:

وشُـغِـلْـتُ عـن فَـهْـمِ الـحـديـثِ سِـوَى
مـا كـان مِـنـكِ فـإنـه شُـغْـلـي
وأُديـمُ لَـحْـظَ مُـحَـدِّثـي لِـيَـرَى
أن قـد فـهِـمـتُ وعِـنـدكـم عَـقْـلـي

فلمَّا رأى نوفلٌ ذلك منه، أدخلَه بيتاً وقيَّدَه، وقالَ: أعالجُه، فأكلَ لحمَ ذِراعيهِ وكفَّيهِ، فحلَّه وأخرجَه. فكانَ يأوي معَ الوحشِ، وكانَ لهُ رابَّةٌ ربَّته صغيراً، فكانَ لا يألفُ غيرَها، ولا يقرُبُ منهُ أحدٌ سِواها. فكانتْ تخرُجُ في طلبهِ في البادِيَة، وتحملُ لهُ الخبزَ والماءَ، فربَّما أكلَ بعضَه، وربَّما لم يأكُل. فلم يَزلْ على ذلك حتى مات.

* * *

في ذكرِ ما وقعَ لهُ منَ الاستخبارِ والاصطياد، وما حصلَ له بذلك منَ الاستدلالِ والاستمداد

لقيَ مجنونُ بني عامرِ الأحوصَ بنَ محمَّدٍ الأنصاريَّ فقالَ له: حدِّثني حديثَ عُروة بنِ حِزام، قال: فجعل الأحوص يحدِّثه، وهو يسمَعُ، حتَّى فرَغَ من حديثِه، ثم أنشأ يقول:

عَجِبْتُ لِعُرْوَةَ العُذْرِيِّ أمسى
أحاديثاً لِقَومٍ بعدَ قَومِ
وعُروةُ ماتَ موتاً مُستريحاً
وها أَنَذَا أُمَوَّتُ كلَّ يَومِ

ودخلَ كثيِّرُ عزةَ على عبدِ الملك بنِ مروانَ، فجعلَ يُنشِدُه شعراً في عزَّة وعيناهُ تَذرِفانِ. فقالَ لهُ عبدُ الملك: قاتَلَك الله يا كثيِّرُ! هل رأيتَ أحداً أعشقَ منكَ؟

قالَ: نعم يا أميرَ المؤمنين؛ خرجتُ مرةً أسيرُ في الباديةِ على بعيرٍ لي بموضعٍ. فبينا أنا أسيرُ إذ رَفع لي شخصٌ قامتَه، فإذا رجلٌ قد نَصبَ شَرَكاً للظبيِ، وقعدَ بعيداً منه، فسلمتُ عليه، فردَّ السَّلامَ، فقلتُ له: ما أجلسَك ها هُنا؟

قالَ: نَصبتُ شَرَكاً للظبيِ فأنا أرصُدُهُ.

قلتُ: إنْ أقمتُ لدَيْكَ، فصِدْتَ أطعَمْتَني؟ قال: إيهاً والله.

قالَ: فنزلتُ وعقلتُ ناقتي، وجلستُ أحدِّثُه، فإذا هوَ أحسنُ خلقِ الله حَديثاً، وأرقُّهُ وأجزَلُه. قال: فما لَبِثْنا أن وقفَتْ ظَبْيَةٌ في الشَّرَك، فوثبَ ووثَبَتُ معَهُ، فخلَّصَها منَ الحبائِل، ثم نظرَ في وجهِها مليًّا، ثمَّ أطلَقَها وأنشأ يقولُ:

أيـا شـبْـهَ لـيـلـى لا تُـراعَ فـإنّـنـي
لـكَ الـيـومَ مِـنْ بـيـن الـوحـوشِ صـديـقُ
ويـا شِـبْـهَ لـيـلـى لـن تـزالَ بـرَوْضـةٍ
عـلـيـك سـحـابٌ دائـمٌ وبُـروقُ
فـمـا أنـا ـ إذ أشْـبَـهْـتَـهـا ـ ثُـمَّ لَـمْ تَـؤُبْ
سـلـيـماً ـ عـلـيـهـا فـي الـحـيـاة شـفـيـقُ
فَـفِـرَّ فـقـدْ أطـلـقـتُ عـنـكَ لـحـبِّـهـا
فـأنـتَ لـلـيـلـى مـا حـيـيـتَ طـلـيـقُ
فـعـيـنـاكَ عَـيـنـاهـا وجـيـدُكَ جـيـدُهـا
ولـكـنَّ عـظـمَ الـسـاقِ مـنـكَ دقـيـقُ

ثمَّ أصلحَ شَرَكَه، وعُدْنا إلى مَوضعِنا، فقلتُ: والله لا أبرحُ حتى أعرفَ أمرَ هذا الرجل. فأقَمْنا باقي يومِنا، فلمْ يَقعْ لنا شيءٌ. فلما أمسَيْنا، قامَ إلى غارٍ قريبٍ منَ الموضعِ الذي كنَّا فيه. وقمتُ معه، فبِتْنا فيه، فلما أصبح غَدا فنصَبَ شَرَكَهُ، فلم نلبثْ أنْ وقعتْ ظبيةٌ شَبيهةٌ بأختِها بالأمسِ، فوثَبَ إليها، ووثبتُ معَهُ، فاستخرجَها منَ الشَّركِ، ونظرَ في وَجْهِهَا مَليًّا، ثمَّ أطلقَها فمرَّتْ، فأنشأ يقولُ:

اذهـبـي فـي كَـلاءة الـرَّحْـمٰـنِ[1]
أنـتِ مـنّـي فـي ذمَّـةٍ وأمـانِ

(1) في كلاءة الرحمن: في حمايته.

تـرهـبـيـنـي والـجـيـدُ مـنـكِ كـلـيـلـى
والـحـشـا والـبُـغـامُ والـعـيـنـانِ؟[1]

لا تـخـافـي ولـن تُـراعِـي بـسـوءٍ
مـا تـغـنّـى الـحـمـامُ فـي الأغـصـانِ

ثمَّ عُدنا إلى موضِعنا، فلم يَقعْ يومَنا ذلك شيءٌ. فلمَّا أَمْسَيْنا صِرْنا إلى الغارِ، فبِتْنا فيه. فلمَّا أصبحنا غدا إلى شَرَكِهِ، وغدوتُ معه، فنصَبَهُ وقعدَ يتحدَّثُ، وقد شَغلني - يا أميرَ المؤمنين- بحُسْنِ حديثِهِ عن الجوع. فبينا نحنُ نتحدَّثُ إذ وقعَتْ في الشَّرَكِ ظبيةٌ، فوثَبَ إليها، ووثبتُ معه، فاستخرجْتُها منَ الشَّرَك، ثم نظرَ في وجهِها، وأرادَ أنْ يُطلِقَها، فقبضْتُ على يدِهِ، وقلتُ: ماذا تريدُ أن تعملَ؟ أقمتُ لديكَ ثلاثاً، كلَّما صِدْتَ شيئاً أطلقْتَه! قالَ: فنظرَ في وجهي وعيناهُ تَذْرفانِ، وأنشأ يقولُ:

أتَـلـحَـى مُـحـبًّـا هـائـمَ الـقـلـبِ أنْ رأى
شَـبـيـهًـا لِـمَـن يَـهْـواهُ فـي الـحـبـلِ مُـوثَـقـا؟

فـلـمَّـا دَنـا مـنـهُ تـذكَّـرَ شَـجْـوَهُ
وذكَّـرَهُ مَـنْ قـد نـأى فَـتَـشَـوَّقـا[2]

... فرحمتُه - والله - يا أميرَ المؤمنينَ، فبكيتُ لبكائِه، ونسبتُه، فإذا هوَ قيسُ بنُ معاذٍ المجنونُ. فذاك - والله - أعشقُ مني يا أمير المؤمنين.

* * *

(1) ترهبيني: تخافيني؛ البغام: صوت الظبي.

(2) الشجو: الحزن. نأى: بَعُدَ.

في ذكر كَلَفها به

حدَّثَ أحد شيوخ بني مرّة قال: رحلَ رجلٌ منّا إلى الشامِ ممّا يلي تَيماءَ والشَّراةَ[1] في طلبِ بُغيةٍ له، فإذا هوَ بخيمةٍ قد رُفعتْ له، وقد أصابَه مطرٌ، فعدَلَ إليها، فتنحْنَحَ، فإذا امرأةٌ قد كَلَّمَتْه، فقالَتْ: أما تنزلُ؟ فنزِلَ.

وراحَتْ إبلُهم وغنمُهم فإذا أمرٌ عظيمٌ، وإذا رعاءٌ كثيرٌ. فقالتْ لبعضِ العبيد: سَلُوا هذا الرجلَ من أينَ أقبَلَ؟ فقلتُ: من ناحيةِ اليمامةِ[2] ونجدٍ، فقالت: أيَّ بلادِ نجدٍ وطئتَ؟

قلتُ: كلَّها.

فقالتْ: بمن نزلتَ هناك؟

قلت: ببني عامرٍ. فتنفَّست الصُّعداء وقالتْ: بأيِّ بني عامرٍ؟

فقلت: بِبَني الحريشِ.

فاسْتعبرتْ[3] ثمَّ قالتْ: هل سمعتَ بذكرِ فتًى يقالُ لهُ: «قيسٌ»، ويلقَّبُ بالمجنون؟

فقلتُ: إيْ والله، ونزلتُ بأبيهِ، وأتيتُه حتى نظرتُ إليه يَهيمُ[4] في تلك

---

(1) تيماء: واحة تقع جنوبي دومة الجندل. الشراة: صقع بالشام بين دمشق والمدينة المنورة.

(2) اليمامة: بلاد في وسط الجزيرة.

(3) استعبرت: بكت.

(4) يهيم على وجهه: يذهب لا يدري أين يتوجه.

الفيافي، ويكونُ معَ الوحشِ، لا يعقلُ ولا يَفْهمُ، إلا أن تُذكَرَ له ليلى فيبكي، وينشِدُ الأشعارَ يقولُها فيها. قال: فرفعتِ السِّتْرَ بَيْني وبَيْنَها، فإذا شِقَّةُ قمرٍ، فلم تَرَ عَيني مثلَها، فبكتْ وانتَحبت، حتى ظننْتُ - والله - أنَّ قلبَها قدِ انصدَعَ. فقلتُ لها: أيَّتُها المرأةُ! اتَّقِ اللهَ! فواللهِ ما قلتُ بأساً. فمكثتْ طويلاً على ذلك الحالِ منَ البكاءِ والنَّحيبِ ثمّ قالت:

ألا ليتَ شِعري والخطوبُ كثيرةٌ
متى رحلُ قيسٍ مُسْتَقلٌ فراجِعُ؟
بنفسيَ مَن لا يَسْتَقِلُّ برحلِهِ
ومَنْ هوَ إنْ لم يحفظِ الله ضائعُ

ثمَّ بكتْ حتى غُشيَ عليها، فلما أفاقَتْ قلتُ: مَن أنتِ يا أمَةَ الله؟

قالتْ: أنا ليلى المُتَيَّمةُ عليه، غيرُ المساعِدةِ له. فما رأيتُ مثلَ حُزنِها عليه ووَجْدِها به، فمضيتُ وتركتُها.

* * *

في ذكرِ ذهابِهِ في تَنَشُّق الأَخبار

خرجَ المجنونُ مع قومٍ في سفرٍ، فبينَما هُم يسيرون إذْ تشعَّبَتْ لهُم طريقٌ إلى الماءِ الذي كانتْ عليه لَيلى. فقالَ المجنون لأصحابِه: إنْ رأَيتُم أَن تَحطُّوا وتَرعَوا وتنتظروني حتى آتيَ الماءَ؟ فأبَوا عليه وعَذَلوه، فقال لهم: أنشِدُكم الله لو أنَّ رجلاً صحِبَكُم، وتحرَّمَ[1] بكُم، فأضَلَّ بعيرَهُ، أكُنْتُم مُقيمينَ عليهِ يَوماً حتى يطلُبَ بعيرَهُ؟

قالوا: نعم!

قال: فوالله لَليلى أعظمُ حُرمَةً منَ البعيرِ. ثم أنشأ يقولُ:

أأتْـرُكُ لَـيْـلَـى لَـيْـسَ بَـيْـنِـي وَبَـيْـنَـهَـا
سِـوَى لَـيْـلَـةٍ إنِّـي إذاً لَـصَـبُـورُ
هَـبُـونِـي أمْـرَأً مِـنْـكُـمْ أضَـلَّ بَـعِـيـرَهُ
لَـهُ ذِمَّـةٌ إنَّ الـذِّمَـامَ كَـبِـيـرُ
ولَـلـصَّـاحِـبُ الْـمَـتْـرُوكُ أعْـظَـمُ حُـرْمَـةً
عـلـى صـاحـبٍ مـن أنْ يـضِـلَّ بـعـيـرُ
عـفـا الله عـن لـيـلـى الـغـداةَ فـإنّـهـا
إذَا وَلِـيَـتْ حُـكْـمـاً عَـلَـيَّ تَـجُـورُ[2]

(1) تحرّم: تمنّع واحتمى.

(2) تجور: تظلم.

وقيلَ: إنَّه كانَ يمرُّ على ديارِهم ويقولُ:

أمــرُّ عـلــى الـدّيـار ديـارِ لـيـلـى
أُقَــبِّــلُ ذا الــجـدارَ وذا الــجـدارَا

ومـا حـبُّ الـديـارِ شـغـفْـنَ قـلـبـي
ولـكـنْ حـبُّ مَـنْ سـكـن الـدّيـارَا

وقيلَ: إنه كانَ يسألُ الرُّعاة عنْهم أينَ نزلوا؟ ويقول:

سـألـتُ مُـرادَ الـحـيِّ لَـمّـا أَتَـيْـتُـهُ
وأَخْـبَـرْتُـهُ مـا قَـدْ جَـرى ودَهـانِـي

وقُـلْـتُ لَـهُ: أيْـنَ الّـذيـنَ عَـهِـدْتُـهُـمْ
بِـبـطـنـكَ فِـي طِـيـبٍ وحُـسْـنِ أمـانِ؟

فَـقـالَ: مَـضَـوْا واسـتَـوْدَعُـونـي دِيـارَهُـمْ
وَمَـنْ ذا الَّـذي يَـبْـقَـى عـلـى الـحَـدَثـانِ؟[1]

وذلك أنهم كانوا قد نزلوا بجبل «مُراد».

وقيلَ: إنه خرجَ مرةً حتى جاءَ حيَّها فوقفَ، وإذا فتًى قد خرجَ، فلمَّا رآهُ أنكَرَ أمرَهُ، وقال له: مَن تكونُ؟ وأيُّ حاجةٍ لكَ ها هُنا؟

قالَ: أنا من خُزاعَةَ، ضلَّتْ لي ناقَةٌ، فخرجْتُ في طَلبِها.

فقالَ له: كذَبْتَ، بل أنتَ قيسُ بنُ مُعاذٍ، ارجعْ مِن حيثُ أتيتَ، فإنْ ظَفِرَ بكَ الحيُّ قتلوكَ. فرجَعَ وهو يقولُ:

واخَـجْـلـتـي مـن وقـوفـي وسْـطَ دارِكُـمُ
وقَـوْلِ وَاشـيـكُـمُ مَـنْ أنـتَ يـا رَجُـلُ

---

(1) حَدَثان الدهر: نوائبه.

فقلتُ حَيْرانُ قد ضلَّ الطّريقُ بهِ
فَأرْشِدُوني فلي في حَيِّكُمْ شُغُلُ
فقالَ مُرْ راجعاً ليس الطّريقُ كذا
كيف احتيالي وقد ضاقتْ بِيَ الحِيَلُ

فرجَعَ، فمرَّ براعٍ، فنزلَ عندَهُ، فسقاهُ لبناً، فجعلَ يقولُ:

وما النّاسُ إلّا العاشقونَ ذوو الهوى
ولا خيرَ فيمن لا يُحِبُّ ويَعشقُ
إذا لُمْتُها قالتْ وعَيْشِكِ إنّنا
حِراصٌ على اللُّقْيَا ولا نتفرَّقُ
فإن كنتَ مشتاقاً فَسِرْ نحْوَ بابِنا
فنحنُ إلى ما كانَ من ذاكَ أشْوَقُ

وقيلَ: إنَّهُ مرَّ بطائفةٍ من بَني عمِّها وهو يقولُ:

وما بِيَ إلَّا حبُّ ليلى كِفَايةً
جنُوناً وإنّي في الهَوى لأسيرُ
فلا تقتليني أُمَّ مالكَ عَنْوةً
وأنتِ على عشْقِي الغداةَ قديرُ
فيا ربِّ هَبْ نفسي لنفسي وداوِني
بليلى لِتُجْلَى كُرْبَةٌ وزفيرُ

وقيلَ: إنَّه خرجَ مرةً إلى حيِّهم، فنزَلَ بامرأةٍ يقالُ لها: «سعادُ»، فاختَفى عندَها، فأحسَّ بذلك أهلُها، فتقدَّموا إلى سعادَ في ذلك، فجاءتْ إليه، وحذَّرَتْه وأخبرَتْه أنها غَريبةٌ، وأنَّها تخافُ على نفسِها أنْ يُخرِجوها منَ الحيِّ، أو أنْ يَقْتلوهُ عندَها، فقالَ:

فإنْ تَزْجُرِينِي عَنْكِ خِيفَةَ كاشِحٍ[1]
بِحالِي فإنِّي ما عَلِمْتُ كَئِيبُ

وَقَدْ حَلَّ بِي مَا كُنْتُ عَنْهُ بِمَعْزِلٍ
لِحَيْنِي[2] فَمَوتِي يا سُعَادُ قَرِيبُ
وإنِي لَمُضْنًى مِنْ جَوَايَ صَبَابَةً
يَقولُ لِيَ الوَاشُونَ أَنْتَ مُرِيبُ
أَجارَتَنَا إنَّ الخُطُوبَ تَنُوبُ
وإنِّيَ صَبٌّ ما أَقامَ عَسَيبُ[3]
أجارَتَنَا إنَّا غِرِيبانِ هَا هُنا
وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلغَرِيبِ نَسِيبُ[4]
غَرِيبٌ يُقاسِي الذُّلَّ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ
وَلَيْسَ لَهُ فِي العالَمِينَ حَبِيبُ
فَلا تَسْمَعِي فِينا مَقالَةَ جَاهِلٍ
فرَبِّي كما قَدْ تَعْلَمِينَ مُجِيبُ

وقيلَ: إنَّه، ذهبَ مرةً، فرآها، ولم يقدِرْ على كلامِها، فقالَ:

إذا نَظَرَتْ نَحوي تَكَلَّمَ طَرْفُها
وَجَاوَبَها طَرْفي وَنَحْنُ سُكوتُ

---

(1) الكاشح: العدو المضمر العداوة.

(2) الحين: الموت.

(3) الخطوب: المصائب. صَبٌّ: عاشق. عسيب: اسم جبل بعالية نجد.

(4) نسيب: قريب.

فـواحِـدَةٌ مـنـهـا تُـبَـشِّـرُ بـالـلِّـقـا
وأُخـرى لـهـا نَـفـسـي تـكـادُ تـمـوتُ
إذا مُـتُّ خَـوْفَ الـيـأسِ أحـيـانِـيَ الـرَّجـا
فَـكَـمْ مَـرَّةٍ قـد مُـتُّ ثُـمَّ حَـيِـيـتُ
ولـو أحْـدَقَـتْ بِـي الإنـسُ والـجِـنُّ كـلُّـهُـم
لِـكَـيْ يَـمْـنَـعُـونِـي أَنْ أَجِـيـكِ لـجِـيـتُ

وقيلَ: إنَّها اجتمَعَتْ بهِ مرَّةً، ثم ودَّعَته، فقال:

مُـنِـعْـتُ عـن الـتَّـسـلـيـمِ يـومَ وَدَاعِـهـا
فـودَّعْـتُـهـا بـالـطَّـرْفِ والـعَـيْـنُ تَـدمَـعُ
وأُخْـرِسْـتُ عـن رَدِّ الـجـوابِ فـمَـنْ رأى
مُـحِـبًّـا بـدمـعِ الـعَـيْـنِ قَـلْـبـاً يُـودِّعُ
عـلـيـكِ سـلامُ الـلّـهِ مـنّـي تـحـيَّـةً
إلـى أنْ تَـغـيـبَ الـشَّـمـسُ مِـنْ حيـثُ تـطـلـعُ

وقيلَ: إنها زارتْه مرةً، فأنشأ يقول:

زَهـا جـسْـمُ لَـيـلـى فـي الـثِّـيـابِ كَـمـا زَهـا
مـعَ الـغـصـنِ غُـصـنٌ قـد تَـزايـدَ عُـودُهـا
ومـا بـالُ لـيـلـى لـيـسَ تـخـلـصُ مِـنْ دَمـي
وتَـعـلـمُ أنَّ الـنـارَ حـامٍ وَقـودُهـا؟
ألا قُـلْ لِـلـيـلـى: قَـدْ وَهَـبْـتُ لـهـا دَمـي
وَجُـدْتُ بِـنـفـسـي قـد نَـعـاهـا عَـزيـزُهـا

* * *

في عدم شعوره بالألم مع ذكرها، وسؤاله القريب والبعيد بكل أمرها

مرَّ المجنونُ يوماً بزوج ليلى وهو جالسٌ يَصْطلي في يومِ شاتٍ، فوقفَ عليهِ ثمّ قال:

بـربّـكَ هـل ضـمـمْـتَ إلـيـكَ لـيـلـى
قُـبَـيـلَ الـصّـبـحِ أو قـبَّـلـتَ فـاهـا؟
وهـلْ رفَّـتْ عـلـيـكَ قُـرونُ لـيـلـى
رَفـيـفَ الأُقْـحـوانـة فـي نَـداهَـا؟

فقالَ: اللهَّم إذْ حلَّفْتَني، فنعم.فقبضَ المجنونُ بكلتا يديهِ قبضةً منَ الجمرِ فما فارقَهما حتى خَرَّ مغشِياً عليه، فسَقَط الجمرُ معَ لحمِ راحتيهِ.

* * *

في ذكر ما حصلَ لهُ في جنونهِ منَ الصَّوتِ وذهابِهِ مع الوحوشِ حتى جاءَه الموت

وفَدَ فَتًى مِن «نَهدٍ» يقالُ له: صباحُ بنُ عامرٍ على الملوَّحِ أبي قيسِ المجنونِ، فسَلَّمَ عليه، وخَبَّرَه نسَبَه، وقالَ له: إنِّي قد وَفَدْتُ من بَلدي لأنظُرَ إلى قيسٍ، وأَسْمَعَ مِن شعرِه. فما فعلَ؟ فبَكى الشَّيخُ حتى غُشِيَ عليه، ثمَّ سَكنَ، وقالَ له: وأنَّى لكَ بقيسٍ؟ إن قيساً عشَقَ ابنَةَ عمٍّ لهُ، وإنَّه جُنَّ على رأسِها، فإنَّه لا يأنَسُ بأحدٍ، يَرِدُ معَ الوحشِ يومَ وِرْدِها، ويصدُرُ معَها إذا صَدَرتْ. ولكنْ ها هنا شابٌّ يذهبُ إليه في كلِّ يومٍ، وهو يأنَسُ بهِ، فيأخُذُ منهُ ما يقولُ، وقد حفِظَ منهُ قصيدةً يقال لها: «المُؤنِسَة»، فإذا أنشدهُ إيَّاها يأنَسُ به ويحدِّثُهُ. فإنْ شِئتَ فَصِرْ إليهِ.

قَالَ صَباحٌ: فصرتُ إلى الفتى، فرحَّب بي، وسألني عن حالي، فأخبَرتُ، فقال لي: أتَرْوِي لقيسِ بن ذَريحٍ شيئاً؟ فإنَّ المجنونَ مشتَهَرٌ بشعرِه.

قلتُ: أنا من أحفظِ الناس لشعرِ قيس.

قال: فصِرْ إلى موضع كذا وكذا، فاطلبْهُ في تلكَ الفَيافي[1]، فإنَّك تجِدُه. وأعلَمْ أنَّكَ إذا رآكَ سوفَ يَنْفِرُ منكَ، ويُهوي إليكَ بحجرٍ، فلا يَهُولنَّك، واقْعُد كأنَّكَ لا تُريدُه، فإذا رأيتَه قد سكَنَ فاذكُرْ له ليلى، فإنَّه سَيَرجِعُ إليهِ عقْلُهُ،

(1) الفيافي: الفلوات، الصحارى.

ويراجعُ صحَّتَه، ويحدِّثُك عن حالِهِ. ثم أنشِدْه من شعرِ قيسٍ شيئاً، فإنَّه مَشْغوفٌ به.

قال صباحٌ: ففعلتُ الذي أوصاني به الفتى، فلم أزَلْ أطلُبه حتى انتصَفَ النَّهارُ. فإذا أنا برجلٍ عُريانٍ قد سَقَطَ شعرُ رأسِه على حاجِبيهِ، وإذا هو قد حظرَ حظيرةً مِن ترابٍ وهو قاعدٌ في وَسْطِها، وإلى جانبه أحجارٌ، وهو يخطِّطُ بإصبعهِ في الأرضِ. فلمَّا رآني أهْوَى إليَّ بحجرٍ، ووثَبَ ليقومَ، فقعَدْتُ ناحيةً أرمي بِبَصري إلى غيرِه ولا أحفلُ به. ثمَّ إنَّهُ رجَعَ إلى عَبثِهِ وتَخْطيطِه. فقلتُ له: أتعرف ليلى؟

فقالَ: بأبي والله هِيَ، وكيفَ لا أعرفُها؟!

قلتُ: لله دَرُّ قيسِ بنِ ذَريحٍ حيثُ يقول:

وإنِّـي لـمُـفْـنٍ دَمْـعَ عَـيْـنِـيَ بِـالْـبُـكـا
حِـذاراً لـمـا قَـدْ كـان أوْ هـوَ كَـائِـنُ
وَقـالُـوا غـداً أوْ بَـعْـدَ ذَاكَ بَـلِـيَّـةٌ
فِـرَاقُ حَـبـيـبٍ لـم يَـبِـنْ وَهْـوَ بَـائِـنُ(1)
وَمَـا كُـنْـتُ أخْـشَـى أنْ تـكُـونَ مَـنِـيَّـتِـي
بِـكَـفَّـيَ إلّا أنَّ مَـا حُـمَّ حَـائِـنُ(2)

ثمّ وثبَ مسرعاً إلى ظباءٍ سنَحَتْ لَهُ، فغابَ عن عَيني، فتبعتُه فجعلتُ أقفو أثَرَهُ(3) إلى آخرِ النَّهارِ، فما وقعتْ عَيني عليه. ثم غدوتُ في اليوم الثَّاني،

---

(1) لم يبن: لم يبعد.

(2) حائن: أزف وقته. حُمَّ الأمر: قُضِيَ.

(3) أقفو أثره: أتتبعه.

فجعلتُ أطوف عليه في تلك الفيافي، حتى إذا جنَّني[1] الليل انصرفتُ. فلما كان اليومُ الثالثُ طلبتُه، فإذا به عُريانٌ بينَ أحجارٍ ميتٌ.

وقيل: إنَّ رجلاً من أهلِ الشامِ كانَ له أدبٌ، وأنهُ ذُكر له المجنونُ، فأُخبِرَ بخَبَرِه، فأحبَّ أنْ يراهُ وأن يسمَعَ مِن شعرِه، فخرجَ يريدُه. حتى إذا صارَ إلى حيِّهِ سألَ عنه، فأُخبِرَ أنَّهُ لا يُؤويهِ مكانٌ، وأنَّه يكونُ معَ الوحشِ.

قالَ: فكيفَ لي بالنظرِ إليه؟ قيلَ: إنَّه لا يقف لأحدٍ حتى يكلمَه، إلا لرابَّةٍ لهُ هيَ التي كانتْ ربَّته. فكلَّم رابَّته، وراسَلها فخرجَتْ معَهُ تطلبُه في مظانِّه التي يكون فيها في البريَّة. فطلبُوه يومَهم ذلك، فلم يقدروا عليهِ، ثم غَدَوا في اليوم الثاني يطلبونه. فبينَما هم كذلك إذْ أشرفوا على وادٍ كثيرِ الحجارة. وإذا به في ذلك الوادي بينَ الحجارة مَيِّتاً. فاحتمله الرجل ورابَّتُهُ، حتى أتَيا به الحيَّ، فَغَسَلوهُ وكفَّنُوه، ودَفَنوه. فقال الرجلُ: قد كنتُ أقدِرُ أنْ أسمَعَ منه شيئاً من شعرهِ ففاتَني. فأنشِدوني من شعرهِ شيئاً أنصرفُ به، فأنشَدوه أشياءَ كتبَها وانصرَف.

وقد حُكي فيهِ غيرُ ذلك، فذكرَ أنَّ كثيِّراً قال: بَيْنَما أنا عندَ مجنونِ بني عامر إذ جاء راكبٌ فقالَ: تعزَّ يا قيسُ!

قالَ: عمَّنْ؟

قال: عَن ليلى. فقام إلى بعيرهِ، وقمتُ إلى بَعيري. ثمَّ أتَينا الحيَّ، فأُرشِدَ إلى قبرها. فأقبَلَ يقبِّلُ، ويَلزَمُه ويشمُّ تُرابَه، ويُنشِدُ الشِّعرَ. ثمَّ شهقَ، فماتَ، فدفنتُهُ.

وجاء في الأغاني[2]:

(1) جنَّني الليل: سترني.

(2) الأغاني 2/ 48. وما بعدها.

روى أحد شيوخ بين مرّة قال: ذهبتُ لألقى المجنون، فدُلِلْتُ على محلَّتِه، فأَتيتُها، فإذا أبوه شيخ كبير وإخوة له رجال، وإذا نَعَم كثير وخير ظاهر، فسألتهم عنه، فاستعْبَروا جميعاً، وقال الشَّيخ: والله لهو كان آثر في نفسي من هؤلاء وأحبّهم إليَّ، وإنَّه هويَ امرأة من قومه، والله ما كانت تطمع في مثله، فلمّا أن فشا أمره وأمرها، كرِه أبوها أن يزوِّجها منه بعد ظهور الخبر، فزوَّجها من غيره، فذهب عقل ابني، ولحقه خَبَلٌ، وهام في الفيافي وَجْداً عليها، فحبَسْنَاه وقيَّدْناه، فجعل يعضُّ لسانه وشفتيه حتى خفْنَا عليه أن يقطعها، فخلَّينا سبيله.

فهو يهيمُ في هذه الفيافي مع الوحوش يُذهَبُ إليه كلَّ يومٍ بطعامه فيوضع له حيث يراه، فإذا تنحَّوا عنه جاء، فأكل منه. قال: فسألتُهم أن يدُلّوني عليه، فدلّوني على فتًى من الحيِّ كان صديقاً له، وقالوا: إنَّه لا يأنس إلاَّ به ولا يأخذ أشعاره عنه غيرُه؛ فأتيتُه فسألتُه أن يَدُلّني عليه؛ فقال: إن كنتَ تريد شعره فكلُّ شعره إلى أمسِ عندي، وأنا ذاهب إليه غداً، فإنْ كان قال شيئاً أتيتُكَ به؛ فقلتُ: بل أريد أن تَدُلَّني عليه لآتيه، فقال لي: إنَّه إنْ نفر منكَ، نفر منِّي، فيذهب شِعرهُ؛ فأبيتُ إلاَّ أن يَدُلَّني عليه، فقال: اطلبْه في هذه الصحارى، فإذا رأيتَه فادنُ منه مستأنِساً، ولا تُرِهِ أنَّكَ تهابه، فإنَّه يتهدَّدُكَ ويَتَوَعَّدُكَ أن يرميك بشيء، فلا يَرُوعَنَّكَ، واجلسْ صارفاً عنه، والْحَظْه أحياناً، فإذا رأيته قد سكن من نفاره، فَأَنْشِدْه إيَّاه، فإنَّه مُعجب به.

فخرجتُ، فطلبتهُ يومي إلى العصر، فوجدتُه جالساً على رملٍ قد خطَّ فيه بإصبعه خطوطاً، فدنوتُ منه غير منقبضٍ، فنفر منِّي نفورَ الوحش من الإنسِ، وإلى جانبه أحْجارٌ، فتناول حجراً، فأعرضتُ عنه، فمكثَ ساعةً كأنَّه نافر يريد القيام، فلمَّا طال جلوسي سَكَنَ وأقبلَ يخطُّ بإصبعه، فأقبلتُ عليه، وقلتُ: أحْسَنَ والله قيسُ بن ذَريح حيث يقول:

ألا يا غرابَ البينِ ويحَكَ أنبِئني
بعلمكَ في لبنى وأنتَ خَبِيرُ
فإن أنتَ لم تُخبرْ بشيءٍ عَلِمْتَهُ
فلا طرتَ إلا والجناحُ كَسِيرُ
وَدُرْتَ بأعداءٍ حبيبُكَ بينَهُمْ
كما قد تراني بالحَبيبِ أدورُ

فأقبلَ عليَّ، وهو يبكي، فقال: أحسنَ واللهِ، وأنا أحسنُ منه قولاً حيث أقول:

كأنَّ القلبَ ليلةَ قِيلَ يُغدَى
بليلَى العَامِريةِ أو يُراحُ
قَطَاةٌ عَزَّها شَرَكٌ فَبَاتَتْ
تُجَاذِبُهُ وقد عَلِقَ الجَنَاحُ

فأمسكتُ عنه هنيهة، ثمَّ أقبلتُ عليه، فقلتُ: وأحسن والله قيس بن ذَريح حيث يقول:

وإنِّي لمُفْنٍ دَمْعَ عَيْنِيَ بِالْبُكا
حِذاراً لما قَدْ كان أوْ هوَ كَائِنُ
وَقالُوا غداً أوْ بَعْدَ ذَاكَ بَلِيَّةٌ
فِرَاقُ حَبِيبٍ بَانَ أوْ هُوَ بَائِنُ
وَمَا كُنْتُ أخْشَى أنْ تكُونَ مَنِيَّتِي
بِكَفَّيَ إلَّا أنَّ مَا حَانَ حَائِنُ

قال: فبكى - والله - حتّى ظننتُ أنَّ نفسه قد فاضَتْ، وقد رأيت دموعَه قد بلَّتِ الرمل الذي بين يديه، ثمَّ قال: أحسنَ لَعَمْرُ اللهِ، أنا والله أشْعَرُ منه حيث أقول:

وأدْنَيْتِني حتَّى إذا ما سَبَيْتِني
بِقَولٍ يُحِلُّ العُصْمَ سَهْلَ الأباطِحِ
تَناءَيْتِ عنِّي حينَ لا ليَ حيلةٌ
وخَلَّفْتِ ما خلَّفْتِ بينَ الجوانِحِ

ثم سنحتْ له ظبية فوثب يعدو خلفها حتى غاب عني. وانصرفتُ، وعدتُ من غدٍ فطلبتُه فلم أجده، وجاءت امرأة كانت تصنع له طعامه إلى الطعام فوجَدَته بحاله. فلمَّا كان في اليوم الثَّالث غدَوتُ وجاء أهله معي فطَلَبْناه يومنا فلم نجده؛ وغَدَوْنا في اليوم الرابع نستقري أثره حتَّى وجدناه في وادٍ كثير الحجارة خشِنٍ، وهو مَيِّتٌ بين تلك الحجارة. فاحتمله أهله فغسلوه وكفّنوه ودفنوه.

قال هيثم: فحدَّثني جماعة من بني عامر: أنَّه لم تبق فتاة من بني جعدة ولا بني الحريش إلاَّ خرجتْ حاسرة صارخة عليه تندبه، واجتمع فتيان الحيّ يبكون عليه أَحرَّ البكاء، وينشجون عليه أشدَّ نشيج، وحضرهم حيُّ ليلى مُعزِّين وأبوها معهم فكان أشدَّ القوم جزعاً وبكاءً عليه، وجعل يقول: ما عَلِمْنا أنَّ الأمر يبلغ كلَّ هذا، ولكنِّي كنتُ امرأً عربيًّا وخرجتْ عن يدي، ولو علمتُ أنَّ أمره يجري على هذا ما أخرجتُها عن يده ولا احتملتُ ما كان عليَّ في ذلك.

قال: فما رُئيَ يوم كان أكثر باكيةً وباكياً على ميِّتٍ من يومئذٍ.

* * *

أخباره
كما جاءت
في رواية أحد القصّاصين

كان في زمن خلافة عبد الملك بن مروان رجلٌ من أهل المفاخر وأصحاب المناصب والمآثر، يقال له الملوّح بن مزاحم، وكان من سادات بني عامر، وله من الأولاد الذّكور ثلاثة أنفار، كأنّهم البدور، وكلّ بالأدب مذكور ومشهور. منهم قيس، وهو صاحب هذه السيرة، الذي اشتهر بالعشق وحسن السريرة، وكان أصغر إخوته عمراً، وأعلاهم همّة، وأرفعهم قدراً، وأفصحهم كلاماً، وأجودهم نظماً ونثراً، وأعلمهم بالأدب وأخبار العرب. وكان مع هذه الأوصاف جميل المنظر، عالي الهمّة، لطيف المحضر، فصيح الكلام، طويل القوام، كأنّه البدر التمام، حافظاً ذمام الاحتشام. قد نطق بالشّعر وهو ابن سبعة أعوام، وكان أعزّ إخوته عند أبيه نظراً لأوصافه وحسن مساعيه، لأنّه كان قد حاز جميع الصفات البديعة، والأخلاق الكريمة الوديعة. وصاحبته هي ليلى بنت مهدي، تتّصل بنسبه في كعب بن ربيعة، وكنيتها أمّ مالك بدليل قوله:

تَــكـــادُ بِـــلادُ اللهِ يـــا أمّ مـــالـــكٍ

بِـمـا رَحِـبَـتْ يَـوْمـاً عَـلـيَّ تَـضِـيـقُ

وكانت سمراء اللّون، قصيرة القامة، فصيحة الكلام، وعلى خدّها اليمين شامة. وكان سبب عشقه لها أنّه ركب يوماً على ناقة له، وخرج من الحيّ على سبيل النزهة والتيسير، وعليه حلّتان من الديباج والحرير، فأقبل على الغدران فوجد عليه جماعة من البنات والنسوان، فحيّاهنّ بالسّلام، وتكلّم معهنّ بأفصح الكلام، فأعجبهنّ غاية الإعجاب، واستدعينه للحديث والخطاب، وكانت ليلى من جملتهنّ، فنزل وجلس معهنّ، وجعل يحادثهنّ، ويقلّب طرفه عليهنّ حتّى وقعت عيناه على ليلى، فافتتن بها واندهش، وخفق فؤاده وارتعش، وقال لها: هل عندكنّ شيئاً من الطّعام؟

قالت: لا يا ابن الكرام، فعمد إلى الناقة فنحرها، وأضرم النار، وأخذ يشاغلها بالحديث والأخبار ومناشدة الأشعار، وهو شاخص فيها دون باقي النساء، ثم قال لها: أتأكلين الشواء؟

قالت: نعم أيّها السيّد المحترم، فطرح الناقة على الجمر في الحال، وقد اعتراه الخبال، وتضعضعت منه الأحوال من شدّة الوجد والبلبال. فقالت له ليلى: انظر إلى اللّحم هل استوى أم لا؟ فتقدّم إلى الجمر وقبضه بكلتا يديه، وسقط على وجه الأرض مغشيًّا عليه، فأكل الجمر لحم راحتيه؛ فلمّا رأته على تلك الحالة مدّت إليه ذراعها، وشدّ يده بهدب قناعها، وعلمت أنّه قد غرق في بحر هواها، وقد اشتهاها وتمنّاها، فتغيّر لون وجهها من شدّة الحياء، وأقام قيس معهنّ كلّ ذلك اليوم إلى المساء، ثمّ ذهب وهو على غير الاستواء من تباريح الوجد والهوى. فلمَّا جنّ عليه اللّيل أخذه الافتكار، وصرف ليله بالبكاء ومناشدة الأشعار، فمن ذلك قوله:

نَـهـاري نَـهـارُ الـنّـاسِ حـتّـى إذا بَـدَا
لـيَ الـلـيـلُ هَـزّتْـني إلـيـكِ الـمـضـاجِـعُ
أُقـضّـي نَـهـاري بـالـحَـديـثِ وبِـالـمُـنَـى
ويَـجْـمَـعُـني والـهـمَّ بـالـلّـيـل جـامـعُ
إذا مَـــرَّ يَـــوْمٌ مِـــنْ حَـــيـــاتِـــي وَلا أرى
خَـيـالَـكِ يـا لَـيْـلَـى فَـعُـمْـري ضـائـعُ
تَـضِـيـقُ عَـلَـيَّ الأرْضُ حـتّـى كـأنَّـنـي
مِـنَ الـصَّـبْـرِ في سِـجْـنٍ فَـمـا أنـا صـانِـعُ

قال الرّاوي: فلمّا كان ثاني الأيّام استدعته للمنادمة والكلام، وقد داخلها الحبّ والغرام، لأنّها كانت مغرمة بأحاديث الناس وأشعارها، وكان هو عارفاً بأيّام العرب وأخبارها، فتمكّنت بينهما المحبّة والمودّة حتى لم يعد يستطيع

على فراقها ساعة واحدة، هذه هو المشهور في كيفيّة عشقها حسب ما ذكرناه، وزعم البعض أنّ سبب وقوع الهوى بينهما خلاف ما أوردناه، وهو أنّهما كانا قد انتشيا صغيرين يرعيان الغنم بدليل قوله:

تَعَشَّقْتُ لَيْلَى وهْيَ غِرٌّ صَغِيرَةٌ
ولم يَبْدُ لِلأتْرابِ من ثَدْيِها حَجْمُ
صَغِيرَيْنِ نَرْعَى البَهْمَ يا لَيْتَ أنَّنا
إلى اليَومِ لَمْ نَكْبَرْ ولم تَكْبَرِ البَهْمُ

فتحابّا ومضى على ذلك برهة وهما بأطيب عيش ونزهة، ثم حجبت عنه كما سيأتي الخبر، وجرى عليه ما لم يجرِ على قلب بشر، وعلى كلا الحالتين عرف كلّ منهما ما عند الآخر؛ وكان قيس يذهب في كلّ يوم إلى أبياتها، فيقف حتى يراها فيشكو إليها ما عنده من حبّها وهواها، ولم يكن له دأب إلاّ البكاء والانتحاب ومناشدة الأشعار في الليل والنّهار؛ وأقام أيّاماً لا يلذّ له حال، ولا ينعم له بال حتى اعتراه السُّقام من شدّة الوجد والغرام.

قال الرّاوي: فلمّا كان ذات يوم سألها قيس أمراً من الأمور لينظر هل له في قلبها مثل الذي لها في قلبه، فمنعته حاجته، وأظهرت النفور، وكان قصدها بذلك امتحان الصحبة لترى ما عنده من المحبّة، فقال لها: قد أخلفت العهود على خلال الأمل المعهود، ثم اصفرّ لون وجهه، وتغيّر وكاد يتفطّر، وأنشد يقول:

مَضى زمنٌ والنَّاسُ يَسْتَشْفِعونَ بِي
فَهَلْ لي إلى لَيْلى الغَداةَ شَفِيعُ
يُضَعِّفُني حُبِّيكِ حتَّى كأنّني
مِنَ الأهلِ والمالِ التَّليدِ نَزيعُ

إذا ما نَهانِي العاذِلُونَ بِحُبِّها
أبَتْ كَبِدِي مِمّا أُجِنّ تُطيعُ
وكيفَ أُطيعُ العاذلينَ وحبُّها
يُؤَرِّقني والعاذلونَ هُجوعُ

فلمّا سمعت شعره بكت من فؤاد متبول وأنشدت تقول:

كِلانا مُظهِرٌ لِلنّاسِ بُغضاً
وكلٌّ عندَ صاحِبِهِ مَكينُ
وأسْرارُ اللّواحظِ ليس تَخْفى
وَحُبُّكَ في فُؤادِي لا يَبينُ
وكيفَ يفوتُ هذا النّاس شيءٌ
وما في النَّاسِ تُظْهِرُهُ العيونُ
فَطِبْ نَفْسًا بذاكَ وَقرَّ عَيْنًا
فإنَّ هَواكَ في قَلْبي متينُ

فعندما سمع مقالها خرَّ مغشيًّا عليه من شدّة الوجد والبلبال؛ ولمّا أفاق أنشد وقال:

أُحِبُّكِ حُبًّا لَو تحبِّينَ مِثلَه
أصابَكِ مِنْ وَجْدٍ عَليّ جنونُ
حَليفٌ مَعَ الغِزلانِ أمّا نَهارُهُ
فَحُزْنٌ وأمّا لَيْلُهُ فَأنينُ
فَيا نَفسُ صَبْراً لا تَكونِي لَجُوجَةً
فَما قد قَضى الرَّحمنُ فهو يكُونُ

وصارت المحبّة تنعقد كلّ يوم عقداً مجدَّداً، ويزداد كلّ منهما في الآخر

محبّة وتودّداً، واتّفق أنّ أباه طرقه ضيوف ليلاً فأرسله ليقترض له سمناً من عند أبي ليلى، فقال أبو ليلى: يا ليلى أخرجي ذلك النحي واقضي حاجة هذا الفتى، ودعيه يذهب من حيث أتى، فخرجت بالجرَّة إليه، وسلّمت عليه، وصارت تسكب السمن في إناء وهي تشكو ما له عندها من الشّوق إلى رؤياه، وأنّها تحبّه وتهواه، ولا تميل إلى أحد سواه.

فلمّا سمع كلامها طاب قلبه وزال غمّه وكربه. هذا وقد التهيا بالحديث مع بعضهما البعض حتى امتلأ الإناء، وصار السّمن يقطر على الأرض، وما زالا يتحدّثان نحو ساعة من الزّمان إلى أن غرقت أرجلهما بالسّمن وهما لا يعلمان، وكان أباها قد استبطأها، فصاح عليها وناداها، فلم تنتبه إليه، ولا ردّت عليه، فخرج ليكشف الخبر، وقد أنكر أمرها، فوجدهما على تلك الحالة المقدّم ذكرها، فاستعظم ذلك الأمر، وطار من عينيه شرار الجمر، ثم منعها الزيارة في الليل والنَّهار، وحجبها عنه خوفاً من الفضيحة والعار، فكان يغتنم غفلة الرقيب، ويجتمع بها فيطفي ما بقلبه من نار اللّهيب.

فلمّا بلغه ذلك شكاه إلى الخليفة مروان، وأعلمه بذلك الشان، فكتب إلى عامله الذي كان والياً على القوم يأمره بقتله إذا هو زارها بعد ذلك اليوم. فلمّا قرؤوا عليه ذلك الكتاب ووقف على حقيقة الخطاب تنهّد وتحسّر وتنغّص عيشه وتمرمر وأنشد يقول:

لَئِنْ حُجِبَتْ لَيلى وآلى أميرُها
عَليَّ يَميناً جاهِداً لا أزورُها
عَلى غير شيءٍ غير أنّي أُحِبُّها
وأنّ فُؤادي عِنْد لَيلى سَميرُها

ولمّا آيس من زيارتها أخذه القلق والوسواس حتى أشرف على زوال عقله وصار مثلاً بين الناس، فأقبل عليه أبوه وبنو عمّه وإخوانه ومن يلوذ به من أهله

وخلاّنه وقالوا له: يا قيس اتّقِ الله وأعرض عن هذه الجارية واسلاها، واعلم إن دمت على هذه الحال أتلفت مهجتك في هواها، ونساء العرب كثيرات، وفيهنّ من تضاهي البدور الزاهرات، فحبّ من هي أحسن منها، وأنّك في غنى عنها، فقد هتكت حالك بين الأهل والخلاّن، وصرفت وقتك بالشّقاء والحرمان، وصرت مثلاً بين قبائل العربان، فلمّا ألحّوا عليه بالكلام قال: دعوني يا قوم من العتب والملام، فإنّي لا أختار امرأة عليها، ولا أميل إلاّ إليها، ثمّ تنهّد من فؤاد متبول، وأنشد يقول:

تَقُولُ العِدا ـ لا بارَكَ اللهُ في العِدا ـ:
تَقاصَرَ عَنْ لَيْلَى وَرَثَّتْ وَسائِلُهْ
فَلَوْ أصْبَحَتْ لَيْلى تَدِبُّ على العَصا
لَكانَ هَوى لَيْلى جديداً أوائِلُهْ

فعند ذلك ساروا جميعاً، وأتوا أبا ليلى، وحدّثوه بالقصّة، وأعلموه بما وقع في قلب قيس من الغصّة، وسألوه القرابة، وأقسموا عليه باسم الله يعطيها إيّاه، وأخبروه بالحالة التي هو فيها، ودفعوا له في مهرها مئة ناقة براعيها، فأبى ولم يقبل، وقال: هذا داء مشكل، وأمر معضل، ما فعله أحد غيري سابقاً، ولا تركت العرب تقول إنّي زوّجت عاشقاً.

قال الرّاوي: وكانت العرب تكره أن تزوّج أحداً شاع ذكره بالعشق لامرأة يحبّها، لأنّهم يقولون إنّه ما زفّ إليها إلاّ بعد أن فتك بها. فلمّا بلغ قيس ذلك المقال اشتد به الوجد والبلبال فأنشد وقال:

ألا أيُّهَا الشَّيْخُ الَّذِي مَا بِنَا يَرْضَى
شَقِيتَ ولا أدْرَكْتَ مِنْ عَيْشِكَ الْخَفْضَا
شَقِيتَ كما أشْقَيْتَنِي وَتَرَكْتَنِي
أهيمُ مع الهُلَّاك لا أُطْعَمُ الْغَمْضَا

أمَـا والَّـذِي أبْـلَـى بِـلَـيْـلَـى بَـلِـيَّـتِـي
وأصْـفـى لِـلـيْـلَـى مِـنْ مَـوَدَّتِـيَ الـمَـحْـضَـا
لأعْـطـيتُ فِـي لَـيْـلَـى الـرِّضـا مَـنْ يَـبِـيعُـهـا
ولـو أكْـثَـرُوا لَـوْمِـي ولـو أكْـثَـرُوا الـقَـرْضَـا

قال الرّاوي: فلمّا سمع أبوه هذه الأبيات ضاق صدره من أجله غاية الضيق، وأشتدّ بقلب اللّهيب والحريق، وقال: إنّ ضرب السيف، ووقع السنان أهون من الذلّ والهوان. ثم إنّ أبا ليلى بعد ذلك الخبر ارتحل بماله وأهله إلى مكان آخر، وكان قيس في أكثر الأحيان يقصد ذلك المكان إلى أن اجتمع بها في بعض الأيام، فجعل يخاطبها بألطف خطاب، وأرقّ كلام، يشكو إليها ما يجده من مكابدة العشق والغرام، وكيف أنّه رفض الطعام، وهجر المنام، ثم جعل يرشّ التراب على رأسه وقدميه إلى أن وقع مغشيًّا عليه، فتقدّمت ورشّت له الماء، وقبّلته بين عينيه، فلمّا أفاق أنشد وقال:

ألا أيُّـهـا الـقَـلْـبُ الـلَّـجُـوجُ الـمُـعَـذَّلُ
أفِـقْ عَـنْ طِـلابِ الـغِـيـدِ إنْ كُـنْـتَ تَـعْـقِـلُ
أفِـقْ قـد أفـاقَ الـعـاشِـقُـونَ وإنَّـمـا
تَـمـادِيـكَ فـي لَـيْـلَـى ضَـلالٌ مُـضَـلَّـلُ
تَـعَـزَّ بِـصَـبْـرٍ وَٱسْـتَـعِـنْ بِـجَـلالِـهِ
فَـصَـبْـرُكَ فـيـمـا لا يُـدانـيـكَ أجْـمَـلُ
لَـحَـى اللهُ مَـنْ بـاعَ الـخَـلِـيـلَ بِـغَـيْـرِهِ
فَـقُـلْـتَ أجَـلْ حـاشـاكَ إنْ كُـنْـتَ تَـفْـعَـلُ
هَـبِـي أنّـنـي أذْنَـبْـتُ ذَنْـبًـا عَـلِـمْـتِـهِ
ولا ذَنْـبَ يـا لَـيْـلَـى فَـصَـفْـحُـكِ أجْـمَـلُ

قال الرّاوي: فلمّا فرغ من شعره اغرورقت عيناه بالدموع، وتحسّر من فؤاد موجوع، فأومت إليه أن يختفي لئلاّ يراه أحد، فانقلب راجعاً، وهو يبكي ويتنهّد، ولمّا عظم عليه الحال أنشد وقال:

أنـا الـوامِـقُ الـمَـظْـلُـومُ اللهُ نـاصِـري
ومُـنْـتَـقِـمِـي مِـمَّـنْ يـجـورُ وَيَـظْـلِـمُ
أنـا الـوامِـقُ الـمَـشْـقُـوقُ والـهـائـمُ الّـذي
أراعـي الـثـريّـا والـخَـلِـيُّـونَ نُـوّمُ
أظَـل بِـحُـزْنٍ مـا أبـيـتُ وَحَـسْـرةٍ
وأشْـرَبُ كـأسًـا فـيـهِ صـابٌ وَعَـلْـقَـمُ
صـريـعٌ مِـنَ الـحُـبِّ الـمُـبَـرِّحِ والـهَـوَى
وأيّ فَـتـى مـنْ عِـلَّـةِ الـحُـبِّ يَـسْـلَـمُ...

قال الرّاوي: وأقام قيس بعد ذلك أيّاماً وهو يكابد ألم الفراق، ونار الوجد، والأشواق لا يتكلّم بكلام، ولا يلتذّ بطعام، فلمّا قلّ منه الاصطبار وعدم القرار ركب ناقته وصار طالباً زيارة ليلى في ذلك المكان، فوجد الحيّ خالياً من السكّان ليس يسمع فيه صوت إنسان سوى صياح البوم ونعيق الغربان، فجعل ينظر إلى مواقد النيران، ويتأمّل في تقلّبات الزمان، فعند ذلك زادت ناره استعاراً لمّا رأى دار ليلى قفاراً، فبكى بكاءً مرّاً وأنشد من كبد حرّى:

ألا يـا ظـبـاءَ الـحَـيِّ أيْـنَ تَـرَحَّـلُـوا
وَسـارُوا بِـلَـيْـلَـى والـكَـواكِـبُ طُـلَّـعُ
دِيـارٌ لِـلَـيْـلَـى بِـالـمُـخَـصَّـبِ أقْـفَـرَتْ
عَـرَصـاتُـهـا فـي سـائِـرِ الـدَّهْـرِ بَـلْـقَـعُ
يَـنُـوحُ عَـلَـيْـهـا الـطَّـيْـرُ فـي جَـنَـبـاتِـهـا
فَـطَـيْـرٌ يُـبَـكِّـيـهـا وَطَـيْـرٌ يَـسْـجَـعُ

فـأمـرَضَ قَـلْـبِـي حُـبُّـهـا وَطِـلابُـهـا

فَيا لـلعِدا مِنْ صَبْوَةٍ كيفَ أصْنَعُ...

قال الرّاوي: فبينما هو على تلك الحال وإذا براعٍ يرعى غنمه في تلك التّلال، فقصده حتى وصل إليه، فسلّم عليه وسأله عن أخبار القوم، فقال له: رحلوا إلى جبل توباد في صباح ذلك اليوم. فسار وهو منزعج الفؤاد حتى أقبل على جبل توباد، وكان ذلك الوقت في آخر النهار، فوجده خالياً من الرجال ليس فيه إلاّ النساء والبنات الأبكار، وبلغ ليلى قدومه من بعض الجوار فداخلها الفرح والاستبشار، فخرجت إلى ملتقاه، وهي لا تصدِّق أن تراه، ولمّا وصلت إليه سلّمت عليه، فابتهج وانشرح، وكاد يطير من الفرح، وأخذ كُلّ واحد يشكو ما هو فيه من ألم الفراق والهوى وتباريح الوجد والجوى، ثم قالت له في آخر الكلام: كيف كان صبرك عنّي يا قيس في هذه الأيّام؟

فقال لها: والله يا منية القلب والروح التي بين الجنب ليس لي عنك صبر ولا سلوان، وقد أقلقني الوجد والهيمان من كثرة الأفكار وسهر الليل والنهار حتى لم يبقَ لي هدوٌّ واصطبار، ولا أقمت في مكان وقرّ لي فيه قرار، وما تركت زيارتك إلاّ خوفاً عليك من الأعداء اللئام الذين ليس لهم عهد ولا ذمام، فإنّ بزيارتك تنجلي همومي وتنقضي غمومي، وينشرح صدري، وتصفو مرآة فكري، ثم بكى بدمع هطّال، وأنشد وقال:

أيا لـيـلَ زَنْـدُ الْـبَـيْـن يـقـدَحُ فـي صَـدْري

ونـارُ الأسَـى تـرمِـي فـؤاديَ بـالـجَـمْـرِ

فـلا تَـحْـسَـبـي يـا لَـيْـلَ أنّـي نَـسِـيـتُـكُـمْ

فـإنّ مَـدَى الأيّـام ذِكْـرَكِ فــي فِــكْـري

فـوالله مـا أنـسـاكِ مـا هَـبّـتِ الـصَّـبـا

ومـا نـاحـتِ الأطـيـارُ فـي وَضـحِ الـفَـجْـرِ

وما لاحَ نَجمٌ في السَّماءِ وَما بَكَتْ
مُطَوَّقةٌ شَجْواً على فَنَنِ السِّدْرِ

فلمّا سمعت منه هذه الأبيات بكت وتنهّدت، وضمّته إلى صدرها وأنشدت:

وَلَقَدْ أرَدْتُ الصَّبْرَ عَنْكَ فَعاقَني
حُلُولٌ بِقَلْبِي مِنْ هَواكَ قَديمُ
وَيَنْفِي جَفاكَ النَّومُ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ
وَيُقْلِقُنِي ذِكراكَ وَهْوَ عَظيمُ

قال الرّاوي: ثم ودّعها بعد ذلك، وسار خوفاً من قدوم الرجال، وفي رجوعه إلى أهله أنشد وقال:

حَلا ذِكْرُ الأحِبَّةِ في فؤادِي
فَهِمْتُ مِنَ الغرامِ بِكُلِّ وادِ
وَقَدْ باحَتْ بِأسْرارِي دُمُوعي
وَجَفْني قَدْ جَفا طِيبَ الرّقادِ
وَكَمْ نادَيْتُ بينَ خِيامِ لَيْلَى
وكَمْ في حُبِّها مثلي يُنادِي
أنا المُضْنَى فجُودي لي بِوَصْلٍ
فَقَدْ زادَ السّقامُ إلى السُّهادِ...

وقال أيضاً:

إذا نَظَرَتْ نَحوي تَكَلَّمَ طَرْفُها
وَجاوَبَها طَرْفي وَنَحْنُ سُكوتُ

وَلَـوْ خُـلِـطَ الـسُّـمُّ الـمُـذابُ بِـرِيـقِـهـا
وَأُسْـقِـيـتُ مِـنْـهُ نَـهْـلَـةً لَـبَـرِيـتُ

وقال أيضاً:

وَلَـوْ شَـهِـدَتْـنِـي حِـيـنَ تَـحْـضَـرُ مِـيـتَـتِـي
جَـلا سَـكَـراتِ الـمَـوْتِ عَـنّـي كَـلامُـهـا
فَـيـا لَـيْـتَـنـا نَـحْـيـا جَـمـيـعـاً فـإن نَـمُـتْ
تُـجَـاوِرُ فـي الـهَـلْـكـى عِـظـامـي عِـظـامُـهـا

قال الرّاوي: وجدّ قيس في قطع الطريق، وهو مسرور بذلك التوفيق حتى أقبل إلى الديار، وفي قلبه من الشوق كلهيب النار؛ فلمّا دخل إلى الخيام قدّمت له أمّه شيئاً من الطعام، فأبى ولم يأكل، ولا عرفت عينه المنام، بل قضى ليله في البكاء والنواح، إلى أن بدت غرّة الصباح. فلمّا رآه أبوه على تلك الحال، وقد تغيّر جسمه، واعتراه الهزال رثى لحاله، وخاف من انزعاج باله، وقال له: يا ولدي ومهجة كبدي، ارجع عن هذا الأمر، واقبل النصيحة، وقد هتكت نفسك، وصرت مثلاً بين الورى، وأحدوثة بكلّ من يسمع ويرى. فكم قد نصحتك وأنت لم تسمع، وأردّك فلم ترجع، وكلّ ذلك لأجل جارية من بنات العرب، وهي دونك في الحسب والنّسب، وأنا أشير عليك الآن أن لا تعد تذكرها في شفة ولا لسان، فإنّ حديثك قد شاع بين جميع العربان، واشتهر في كلّ مكان، فاذكر الله وتُبْ إليه ممّا أنت عليه. فلمّا سمع من أبيه ذلك الخطاب تغلّب عليه الحزن والاكتئاب، وقال له: كلّما حدّثتني بهذا الكلام ازداد بي العشق والغرام. ثم هاجت به الأشواق وغلب عيه الحزن والاكتئاب، وقال له: كلّما حدّثتني بهذا الكلام ازداد بي العشق والغرام، ثم هاجت به الأشواق وغلبت عليه غصّة الفراق، فبكى وانتحب، وفاض دمعه وانسكب، واشتعل قلبه والتهب، وأنشد يقول:

وَكَمْ قائِلٍ لي أَسْلُ عَنْهَا بِغَيْرِها
وَذٰلِكَ مِنْ قَوْلِ الوُشَاةِ عَجِيبُ

فَقُلْتُ وَعَيْنِي تَسْتَهِلُّ دُمُوعُها
وَقَلْبِي بِأَكْنَافِ الحَبِيبِ يَذُوبُ
لَئِنْ كانَ لِي قلبٌ يذوبُ بِذِكْرِها
وَقَلبٌ بأُخْرَى، إنَّها لَقُلُوبُ
فيا ليلَ جُودِي بِالوِصَالِ فإنَّنِي
بِحُبِّيكِ رَهْنٌ والفؤادُ كَئِيبُ

قال الرّاوي:

فبكى أهله رحمةً له، وطلبوا من الله أن يعافيه ممّا ابتلاه، فلمّا سمع كلامهم تنفّس الصعداء، وتنهّد وأشار إليهم وأنشد:

لَقَدْ لامَنِي في حُبِّ لَيْلَى قَرابَتِي
أبي وَابنُ عَمِّي وَابنُ خالي وَخالِيا
يَقُولُونَ لَيْلَى هَلْ يَبِيتُ عَدُوُّهُ
بِنَفْسِي لَيْلَى مِنْ عَدُوٍّ وما لِيا
أرى أهلَ لَيْلَى لا يُرِيدُونَ بَيْعَها
بِشَيءٍ ولا أهْلِي يُرِيدُونَها لِيا
فَيا عَجبًا مِمّنْ يَلُومُ عَلى الهَوى
فَتًى دَنِفًا أمْسَى مِنَ الصَّبْرِ عارِيا
أبيتُ ضَجيعَ الهَمِّ ما أطعَمُ الكَرَى
أُنادي: إلٰهي قَد لقيتُ الدّواهِيا...

وقال أيضاً:

ما بالُ قلبِكَ يا مجنونُ قد خُلِعَا
في حبِّ من لا ترى في نَيْله طَمَعَا
يقولُ صَحْبي وَدَمْعُ العَيْنِ مُنْحَدِرٌ
سَيلاً عَلى الخَدِّ هَطّالاً وَمُنْدَفِعا

وقال أيضاً:

لِمَ البُكاءُ وَلَمْ يُسْمَعْ بِمَنْزِلَةٍ
هذا البُكاءُ لِصَبٍّ مُوجَعٍ فُجِعا
فَقُلْتُ كُفُّوا فإنَّ القَلْبَ وَيْحَكُمُ
لَوْ كانَ مِنْ صَخْرَةٍ صَمّاء لانْصَدَعا
طُوبى لِمَنْ أنتِ يا لَيْلَى قَرينَتُهُ
لَقَدْ نَفَى اللّهُ عَنْهُ الهَمَّ والوَجَعَا...

وقال أيضاً:

وَلَوْ أنَّ ما بِي بالحَصَى فَلَقَ الحَصَى
وَبالرِّيحِ لم يُسْمَعْ لَهُنّ هُبُوبُ
ولو أنّ ما بِي بالجِبالِ لَهُدِّمَتْ
وكادَتْ جلاميدُ الصُّخورِ تَذُوبُ
فإنْ عِشْتُ لا أبْغِي سِواكِ وإنْ أمُتْ
فَما مَوْتُ مِثْلِي في هَواكِ عَجيبُ...

قال الرّاوي: ومازال قيس على مثل ذلك الشأن مدّة من الزمان، وهو يكابد الوجد والهيمان، وقد تغلّبت عليه الهموم والأحزان، وكان كثيراً ما يجول في الفلوات، ويندب ندب الثاكلات، ويمرّ بين أشجار الفضاء، ويتوغّل

في الفلاء والفضاء حتى صار في حالة الذلّ والويل من كثرة البكاء وسهر الليل. واتّفق أنه مرّ يوماً في بعض الكثبان فرأى أنّ رجلاً نصب شركاً لصيد الغزلان، فدنا منه وحيّاه بالسَّلام، وقال له: هل عندك شيء من الطعام؟

فقال: إنّني بعيد عن الديار مسافة نصف نهار، وقد نصبت أشراكي في هذه الربى، فاصبر قليلاً، واطرد عليّ الظباء فإن اصطدنا بلغنا المراد، وسدّينا رمق الفؤاد لأنّ لي نحو يومين ما استطعمت بزاد. فبينما هو عنده إذ وقع بالشرك ظبية، فوثب قيس إليها، وقبّلها بين عينيها، ثم قال: أطلِقْها وأشار يقول:

أيــا شِـبْـهَ لـيـلـى لا تُـراعَ فـإنّـنـي
لـكَ الـيـومَ مِـنْ بـيـن الـوحـوشِ صـديـقُ
ويـا شِـبْـهَ لـيـلـى لَـوْ تـلـبَّـثْـتَ ساعـةً
لـعـلَّ فـؤادي مِـنْ جَـواه يُـفـيـقُ
ويـا شِـبْـهَ لـيـلـى لـن تـزالَ بـرَوْضـةٍ
عـلـيـكَ سـحـابٌ دائـمٌ وبُـروقُ
أقـولُ وَقَـدْ أطْـلَـقْـتُـهـا مِـنْ وِثـاقِـهـا
فـأنـتِ لِـلَـيْـلَـى إنْ شَـكَـوْتِ طَـلِـيـقُ
فَـعَـيْـنـاكِ عَـيْـنـاهـا وجِـيـدُكِ جـيـدُهـا
سِـوى أنّ عَـظْـمَ الـسّـاقِ مِـنْـكِ رَقـيـقُ...

فاستشاط الصيَّادُ غضباً، وتغيّرت منه الأحوال، واعتراه الانذهال وقال:

يا هذا، ما هذه الفعال التي لم يسبقك إليها أحد من الجهّال، فقد منَّ الله علينا بما كنّا نتمنّاه فأحرمتنا إيّاه!؟ فقال له قيس، وقد اشتدّ به جواه، وعظم مصابه وبلاه: لا تلمني، فإنّ عينيها تشبه عينيْ من أهواه، ثم تركه وسار يجول في تلك القفار، وإذا به يرى ظبية أخرى، فأسرع نحوها، وقبض عليها،

ومسح التراب عن وجهها وقرنيها، وبعد ذلك أطلقها وأنشد يقول:

إذهَبي في حِراسَةِ الرَّحْمٰنِ
أنتِ مِنّي فِي ذِمَّةٍ وأمانِ
لا تَخافِي ولا تُجافي بِسوءٍ
ما تَغَنَّى الحَمامُ في الأغْصانِ

وقال أيضاً:

أقولُ لِظَبيٍ مَرَّ بي وهْو رَائِعُ
أأنْتَ أخو لَيْلَى فقال: يقالُ
أيا شِبْهَ لَيْلَى إنَّ لَيْلَى مَرِيضَةٌ
وأنْت صَحيحٌ إنَّ ذا لَمحَالُ

وقال الرّاوي: وكانت ليلى قد مرضت مرضاً شديداً، فلمّا بلغه الخبر خفق فؤاده، وتكدّر وأخذه القلق والضجر وأنشد يقول:

يَقُولون لَيْلى بِالْعِرَاقِ مَرِيضةٌ
فَمَا لَكَ لا تَضْنَى وأنْتَ صَديقُ
فَإنْ تَكُ لَيْلَى بِالْعِراقِ مَرِيضَةً
فإنّيَ في بحْرِ الحُتُوف غَريقُ
أهِيمُ بأقْطارِ البلادِ وعَرْضِهَا
ومَا لِي إلى لَيْلَى الغَدَاةَ طَريقُ
إلى اللهِ أشكُو ما ألاقِي مِنَ الهَوى
بِلَيْلَى ففِي قَلْبِي جَوًى وحريقُ...

وقال أيضاً:

فَلَوْ كُنْتَ يا مجنون تُضْنَى مِنَ الهَوى
لبتَّ كما باتَ السَّليمُ المُسَهَّدُ

قال الرّاوي: ومرَّ رجل ذات يوم بليلى، وهي واقفة في باب خباها، وهي قد تعافت من عياها، فقالت له: يا هذا، إلى أين أنت سائر؟

فقال: إلى ديار بني عامر، فتنهّدت وبكت وأنّت واشتكت وأنشدت تقول:

يا أيُّها الرّاكبُ المُزجي مَطِيَّتَهُ
عرِّجْ لِيَذْهَبَ عنّي بعضُ ما أجِدُ
فما رأى النّاسُ من وَجْدٍ تَضمَّنَهُمْ
إلّا وَوَجْدي بِقَيْسٍ فوقَ ما وَجَدوا
أهوى رضاهُ وإنّي في مَوَدَّتِهِ
وَوُدِّهِ آخِرَ الأيّامِ أجْتَهِدُ

فشفق الرجل عليها، وتقدّم إليها وقال لها: حيّاكِ الله يا حرّة العرب، هل لك من طلب؟ قالت: إن كنت من أهل المروءة وكرم الأخلاق والفتوّة، وتعمل معي هذا المعروف، وتجبر كسر قلبي الملهوف، وهو أنّك متى وصلت إلى تلك المعالم تستدلّ على أبيات قيس بن الملوّح بن مزاحم، فمتى اجتمعت به أقرِهِ منّي كثير السّلام، وقل له: إنّ ابنة عمّك ليلى قد أضناها السقام من شدّة الوجد والغرام، وهي لا تلتذّ بطعام، ولا تذوق أجفانها المنام، وقد صارت مثلاً بين النساء في سائر الأنحاء. ثم كتبت له رقعة ضمّنتها هذه الأبيات:

وأنتَ الذي أخلَفْتَني ما وَعَدْتَني
وأشْمَتَّ بي مَنْ كان فيكَ يلومُ

وَأَبْـرَزْتَـنـي لـلـنّـاسِ ثـمَّ تَـرَكْـتَـنـي
لَـهُـمْ غَـرَضـاً أُرمـى وأنـت سـلـيـمُ

فَـلَـو أنَّ قـولاً يَـكْـلُـمُ الـجِـسْـمَ قـد بـدا
بِـجِـسْـمِـيَ مِـنْ قَـوْلِ الـوُشـاةِ كُـلُـومُ

فسار الرجل طالباً حيّ بني عامر حتّى وصل إليه، واستدلّ على قيس فدلّوه عليه، فحيّاه بالسّلام، وحدّثه بما قالته له ليلى على التمام. فلمّا سمع قيس شعر ليلى أنّ أنين الثكلى، ثم تنهّد من فؤاد متبول، وكتب إليها مع ذلك الرجل يقول:

وَأنـتِ ٱلَّـتِـي كـلَّـفْـتِـنِـي دَلَـجَ الـسُّـرَى
وَجُـونُ الْـقَـطـا بِـالْـجِـلْـهَـتَـيْـن جُـثـومُ

وَأنـتِ الَّـتِـي قَـطَّـعْـتِ قَـلْـبِـي حَـزَازَةً
وَرَقْـرَقْـتِ دَمْـعَ الْـعَـيْـن فَـهْـي سـجُـومُ

وَأنـتِ الَّـتِـي أغْـضَـبْـتِ قَـوْمِـي فَـكـلُّـهُـمْ
بـعـيـدُ الـرِّضـى دانـي الـصُّـدودِ كَـظـيـمُ

ثم خرج يجول ويدور في نواحي ذلك الوطا إذ مرّ به سرب من القطا، فلمّا رآه أنشد يقول:

شَـكَـوْتُ إلـى سِـرْبِ الْـقَـطَـا إذْ مَـرَرْنَ بـي
فَـقُـلْـتُ ومِـثْـلِـي بـالْـبُـكَـاءِ جَـديـرُ:

أسِـرْبَ الْـقَـطَـا هـل مـنْ مُـعِـيـرٍ جَـنَـاحَـهُ
لَـعَـلِّـي إلـى مَـنْ قـد هَـويـتُ أطـيـرُ

وأيُّ قَـطَـاةٍ لـم تُـعِـرْكَ جَـنَـاحَـهَـا
فَـعَـاشَـتْ بِـضُـرٍّ وَالْـجَـنَـاحُ كَـسـيـرُ

وإلّا فَمَنْ هذا يُؤَدّي رِسالَةً
فَاشْكُرَهُ إنَّ المُحِبَّ شَكُورُ

قال الرّاوي: ثم مضى على وجهه، وأوسع في القفار، فبينما هو يدور إذ مرّ بأطيار يجاوب بعضها بعضاً على غصون الأشجار، فدنا منهنّ وأنشد يقول:

ألا يا حَماماتِ اللّوى عُدْنَ عَوْدَةً
فإنّي إلى أصواتِكُنّ حَنُونُ
فلم تَرَ عَيْنِي مِثْلَهُنَّ حَمائمًا
بَكَيْنَ فَلَمْ تَدْمَعْ لَهُنَّ عُيُونُ
فَيا لَيْتَ لَيْلَى بَعْضُهُنَّ وَليتَني
أطيرُ وَدهري عِنْدَهُنَّ أكُونُ

وقال أيضاً:

أجِدّي يَا حَمَامَةَ بَطْنِ قَوٍّ
فَقَدْ هَيَّجْتِ مَشْغُوفًا حَزِينا
أغرَّكِ يَا حَمَامَةَ بَطنِ قَوٍّ
بَأنّي لَا أنَامُ وتَهْجَعِينَا
وإنّي في الشكاةِ أقُولُ حَقًّا
وإنَّكِ في شكاتِكِ تَكْذِبينا
وَلَسْتِ وَإنْ حَنَنْتِ أشَدَّ وَجْداً
ولكنّي أُسِرُّ وَتُعْلِنِينَا

فبينما هو على مثل ذلك إذ هبّت ريح الصّبا من نحو أرض نجد فهاج به الغرام والوجد، فأنشد وقال:

ألا يا صَبا نَجْدٍ متى هجت مِنْ نَجْدِ
فَقَدْ زادَني مَسْراكِ وَجْدًا على وَجْدِي
رَعَى اللهُ مِن نَجْدٍ أناسًا أُحِبُّهُمْ
فَلَوْ نَقَضُوا عَهْدِي حَفِظْتُ لَهُمْ وُدّي
بَكَيْتُ كما يَبْكِي الوَلِيدُ وَلَمْ أكُنْ
جَلُودًا وأبدَيْت الّذي ما به أبْدي...

ثمّ مرّ به غراب فخفق فؤاده، وارتاب، وعظم عليه الحال، وأنشد وقال:

ألا يَا غُرابَ الْبَيْنِ هَيَّجْتَ لوْعَتي
فَوَيْحَكَ خَبِّرْني بِمَا أنتَ تَصْرُخُ
أبِالْبَيْنِ مِنْ لَيْلَى؛ فإنْ كُنْتَ صَادِقاً
فَلا زَالَ عَظْمٌ مِنْ جَنَاحِكَ يُفْسَخُ
وَلَا زِلْتَ فِي شَرِّ الْعَذَابِ مُخَلَّداً
وَرِيشُكَ مَنْتُوفٌ وَلَحْمُكَ يُسْلَخُ

قال الرّاوي: ولمّا جنّ عليه الظلام، ارتدّ راجعاً إلى الخيام، وبات في قلق شديد، وغمّ ما عليه من مزيد؛ ولمّا كان الصباح رجع إلى ما كان عليه من البكاء والنواح. قال: وما زال على تلك الحال حتى ضعف جسمه، واعتلّ، وكاد عقله من شدّة الوساوس أن يختل، وبلغ ليلى الخبر، فأخذها القلق والضجر، واصفرَّ لون وجهها وتغيّر، وفاض دمعها على خدّيها وانحدر، وواظبت على البكاء والسهر، وجرى عليها ما لم يجر على قلب بشر، فكتبت إليه مع من تعتمد عليه: أيّها الحبيب والسيّد الأديب، مهجة الفؤاد وزينة الأمجاد، مَن قد فاق سائر الأنام بالكمال وحسن الخصال، وحفظ العهود والذمام والمحبّة الصالحة الخالية من الآثام، قد بلغني ما أنت فيه من الشوق والغرام والوجد والهيام، ومكابدة السهر وهجران الطعام، واحتمال كلام اللّوام

حتى عراك الهزال وصرت ناحلاً كالخيال، وحيث الحالة هذه فاحضر في نصف هذا الليل إلى وادي الأراك، وأنا أوافيك إلى هناك، ولو خاطرت بنفسي في هواك، فلا يساوي ذلك لذّة رؤياك، وختمت كلامها بهذين البيتين:

يـا مُـنْـيَـتـي أنـتَ مَـقْـصـودِي ومَـطْـلُـوبـي
وأنــتَ رَغْــمــاً عَــنِ الأغْــداءِ مَــحْــبُــوبــي
إنْ تَـحْـتَـجِـبْ عَـنْ عُـيُـونِ الـصَّـبِّ يـا أمَـلـي
مـا أنْـتَ عَـنْ قَـلْـبيَ الـمُـضْـنـى بِـمَـحْـجـوبِ

قال الراوي: ولمّا بلغ قيس هذه الرسالة، ووقف على فحوى تلك المقالة، انشرح صدره واستراح، وخفّت عنه بعض الأتراح وأنشد وقال:

تَـعُـودُ مَـرِيـضـاً أسْـقـمَـتْـهُ بِـهَـجْـرِهَـا
ولـوْ عَـاوَدَتْـهُ عـادَ لا يَـعْـرِفُ الـسُّـقْـمَـا
لَقَدْ اضْرَمَتْ في الْقلْبِ ناراً مِن الْجَوَى
فـمـا تَـرَكَـتْ عَـظْـمـاً ولا تَـركـتْ لَـحْـمَـا
وإنِّــي عَــلَــى هِــجْــرَانِــهَــا وَصُــدودِهَــا
ومـا حَـلَّ بـي مِـنْـهـا أرَى حُـبَّـهـا حَـتْـمَـا
خَـلـيـلـيَّ كُـفَّـا لا تَـلُـومَـا مُـتَـيَّـمـاً
ولا تَـقْـتـلَا صَـبًّـا بِـلَـوْمِـكـمـا ظُـلْـمَـا

قال الرّاوي: ثم إنّه قصد ذلك المكان، وفي قلبه لهيب النيران إلى أن وصل إلى تلك الأرض عند إقبال الظلام، فجلس وهو يتأمّل في الربى والآكام إلى أن انتصف ظلام الليل، وعلا نجم سهيل، فعند ذلك زاد به القلق والشوق والأرق، فارتعش فؤاده، وخفق ووقع على وجه الأرض، وشهق، وإذا بليلى قد وفت تحت ذيل الغسق، فتقدّمت إليه، وسلّمت عليه، وقبّلته في عارضيه

وبين عينيه، فلمّا رآها فرح واستبشر، وزال عنه الغم والضجر، فنهض في الحال، وجلس وردّت روحه إليه بعد أن كان على آخر نفس لأن العاشق لا يبرأ إلاّ بنظر الحبيب، فإذا رآه ذهب ما بقلبه من اللهيب، ثم قالت له: قد بلغني ما أنت فيه من الهمّ والحزن حتى ضعف جسمك، وتغيّر لون وجهك بعد ذلك الحسن، وذلك كلّه لأجلي، فلا كنت أنا ولا كان أهلي.

فقال لها: وحقّ من يقول للشيء كن فيكون، إنّني منذ فارقتك للآن لم تغمض لي جفون بل كنتُ أهيم مع الوحوش في البراري والقفار أنشد الأشعار وأقتفي الآثار، وألفي نفسي في المهالك والأخطار، وأوصل اللّيل بالنّهار، ولا يطيب لي عيش ولا يقرّ لي قرار حتى نفّرت أهلي منّي، وانقلبت القلوب عنّي وكنت كلّما ذكرتك خفق فؤادي، وغاب رشادي، وتبلبل خاطري واشتعلت سرائري إلى أن اضمحلّ جسمي من الهزال، وذاب من شدّة الوجد والبلبال، لأنّ سلطان الهوى عنيد، وقيده أشدّ من سلاسل الحديد، والآن قد انجلت عن قلبي الكروب، وانشرح صدري برؤيتك بعد أن كان «متعوب»، ثم غلب عليه جواه، وتذكّر ما قاساه، فتأوّه وتنهّد، وأشار إليها وأنشد:

فَـوالله مـا أدري عَـلامَ هَـجَـرتِـنِـي
وَأيَّ أمُـورٍ فِـيـكِ يَـا لَـيْـلَ أرْكَـبُ
أأقْـطَـعُ حَـبْـلَ الْـوَصْـلِ، فـالـمَـوْتُ دُونَـه
واشْـرَبُ كـأسـاً مِـنْـكُـمُ لـيـس يُـشْـرَبُ
فَـلَـوْ كـانَ لـي قَـلْـبـانِ عِـشْـتُ بِـواحِـدٍ
وَأبْـقَـيْـتُ قَـلْـبًـا فـي هَـواكِ يُـعَـذَّبُ...

وقال أيضاً:

أجِـنُّ إلـى لَـثْـمِ الـثُّـغـورِ الـضَّـواحِـكِ
وأهْـوَى عِـنـاقَ الـبـيـضِ لَـوْنِ الـسَّـنـابِـكِ

وَأَصْبُو إلى ذاتِ الصِّبا من صَبابَتِي
إذا لَمْ يَكُنْ لي فِي الهَوى مِنْ مُشارِكِ
صَرَمْتِ حِبالَ الوَصْلِ يا بنتَ مالِكٍ
فَيا لَيْتَ شِعْرِي أيّ واشٍ وَشى لكِ
مَلَكْتِ فؤادِي وَامْتَحَنْتِ صَبابَتِي
وَمِنْ دَم قَلْبِي قَدْ خَضَبْتِ بَنانَكِ
يُسَمُّونَني مَجْنونَ عامِرَ في الهَوَى
وَلَوْلا هَواكِ كُنْتُ سَيِّدَ مَالِكِ
حَكَمْتِ فَلا تَطْغِينَ في دَوْلَةِ الهَوى
وإلّا فَرِقّي وَاصْنَعي ما بَدا لَكِ

قال الرّاوي: فلمّا انتهى قيس من أبياته تساقط دمعه على وجناته، فقالت له: جزاك الله خيراً، ولا أراك سوءاً ولا ضيراً، ثم فاضت عيناها بالدموع، وتنفّست من فؤاد مفجوع، وأنشدت:

فَلَوْ أنَّ ما ألْقى وما بي من الهوى
بأرْكانِ رَضْوى دَكَّ وَهْوَ مَشيدُ
تَقَطَّعَ مِنْ وَجْدٍ وذابَ حديدُهُ
وأمسى تَراهُ العَيْنُ وَهْوَ عميدُ
ثلاثونَ يوماً كلَّ يَوْمٍ ولَيْلَةٍ
أموتُ وأحْيا إنَّ ذا لَشَديدُ

قال الرّاوي: ثمّ إنها حدّثته بحالها وما أصابها من أجله ونالها، وكيف خاطرت بنفسها محبّة فيه، وأنّها تحبّه وتشتهيه. قال: وما زال قيس يحادث ليلى ويلتذّ منها بالنظر إلى أن مضى وقت السحر، وَلاَح ضَوْءُ النهار وظهر.

فعند ذلك ودّعته ورجعت على الأثر خوفاً من أن يراها أحد من البشر، ورجع هو يطلب أطلاله والديار وفي قلبه من أجلها لواعج النار وهو ينشد ويقول:

وقـد أرْسَـلَـتْ لـيْـلَـى إلَـيَّ رَسُـولَـهَـا
بـأنْ آتِـنَـا سِـرًّا إذا الـلَّـيْـلُ أظْـلَـمـا
فَـجِـئْـتُ عَـلَـى خَـوْفٍ وكُـنْـتُ مُـعـوَّذاً
أُحَـاذِرُ أيْـقَـاظـاً عُـدَاةً وَنُـوَّمَـا
فَـبِـتُّ وبَـاتَـتْ لـم نَـهُـمَّ بِـرِيـبـةٍ
ولـم نَـجْـتـرِحْ يَـا صَـاحِ وَاللهِ مَـحْـرَمَـا
وكـيـف أُعَـزِّي الـقـلْـبَ عـنـهـا تَـجَـلُّـداً
وقـد أوْرَثَـتْ فـي الـقَـلْـبِ دَاءً مُـكَـتَّـمَـا
فَـلَـوْ أنَّـهـا تَـدْعُـو الْـحَـمَـامَ أجَـابَـهـا
ولـو كَـلَّـمَـتْ مَـيْـتـاً إذاً لَـتَـكَـلَّـمَـا

وقال أيضاً:

سَـأبْـكِـي عـلـى مَـا فَـاتَ مِـنِّـي صَـبَـابَـةً
وَأنْـدُبُ أيَّـامَ الـسُّـرُورِ الـذَّوَاهِـبِ
وأمْـنَـعُ عَـيْـنِـي أنْ تَـلَـذَّ بِـغَـيْـرِكُـم
وإنِّـي وإنْ جَـانَـبْـتُ غَـيْـرُ مُـجـانِـبِ
فـاصْـبَـحْـتُ مَـرْحُـومـاً وَكُـنْـتُ مُـحَـسَّـداً
فَـصَـبْـراً عَـلَـى مَـكْـروهِـهـا وَالْـعَـوَاقِـبِ

وقال أيضاً:

بِـنَـفْـسِـي مَـنْ لَا بُـدَّ أنِّـيَ هـاجِـرُهْ
وَمَـنْ أنَـا فِـي الـمَـيْـسُـورِ وَالْـعُـسْـرِ ذَاكِـرُهْ

فَمِنْ أجْلِهَا ضَاقَتْ عَلَيَّ بِرَحبِهَا
بِلَادِيَ إذْ لَمْ أرْضَ عَمَّنْ أجَاوِرُهْ
وَمِنْ أجْلِهَا أحْبَبْتُ مَنْ لا يُحِبُّني
وَباغَضْتُ مَنْ قَدْ كُنْتُ حِيناً أعَاشِرُهْ
أُحِبُّكِ يا لَيْلَى عَلَى غَيْرِ رِيبَةٍ
وما خَيْرُ حُبٍّ لا تَعِفُّ ضَمَائِرُهْ

وقال أيضاً:

بَيْضَاءُ باكَرَهَا النَّعِيمُ كَأنَّهَا
قَمَرٌ تَوَسَّطَ جُنْحَ لَيْلٍ أسْوَدِ
مَوْسُومَةٌ بِالْحُسْنِ ذَاتُ حَوَاسِدِ
إنَّ الْحِسَانَ مَظِنَّةٌ لِلْحُسَّدِ
وتَرَى مَدَامِعَهَا تَرَقْرَقُ مُقْلَةٍ
سَوْدَاءَ تَرْغَبُ عَنْ سَوَادِ الإثْمِدِ
خَوْدٌ إذَا كَثُرَ الكَلامُ تَعَوَّذَتْ
بِحمَى الْحيَاءِ وإنْ تُكَلِّمْ تَقْصِدِ

وقال أيضاً:

أحِنُّ إلى نَجْدٍ وإنّي لآيِسٌ
طِوالَ اللَّيالي من قُفُولٍ إلى نَجْدِ
فإنْ تَكُ لا لَيْلَى ولا نَجْدُ فاعْتَرِفْ
بِهَجْرٍ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ والوَعْدِ

وما زال حبُّهُ لليلى ينمو وشوقه إليها يسمو حتى علاه الوسواس، وترك محادثة الناس، وخرج عن حدّ القياس فكان لا يلبس قميصاً إلاّ حرقه، ولا

ثوباً إلاّ مزّقه، وكان كثيراً ما يطوف في البراري والهضاب، ويكتب الشعر بإصبعه في الأرض على التراب، ودمعه يجري على خدّيه مثل قطر السّحاب؛ فلمّا طال عليه الحال رثت له قلوب الرجال، وأقبل منهم جماعة على أبيه وقالوا له: لو أخرجته إلى مكّة يطوف بالبيت لعلّ الله يعافيه وعن حبّ ليلى يسليه. فأجابهم إلى ذلك وامتثل، وسار به إلى مكّة على عجل. فلمّا قدماها قال له أبوه: يا قيس تعلّق بأستار الكعبة. ففعل. فقال: قل اللّهمّ يا من احتجبت عن العيون، العالم بما كان وما يكون، أرِحْني من حبّ لَيلى وأزل عنّي هذا الجنون. فقال: أيّها الإله الحيّ القادر على كل شيء، وإنّي تائب إليك عن جميع الخطايا والذنوب، إلاّ عن حبّ ليلى وذكرها فإنّي لا أتوب. ثم تأوّه وتنهّد وتنفّس الصعداء وأنشد:

دَعا المُحرِمونَ اللهَ يَستَغفِرونَهُ
بِمَكَّةَ شُعْثاً كَي تُمَحَّى ذُنوبُها
وَنادَيْتُ يا رَحْمٰنُ، أَوَّلُ سُؤْلَتِي
لِنَفسِيَ لَيْلَى ثُمَّ أنتَ حَسِيبُها
وإنْ أُعْطَ لَيْلَى فِي حَياتِيَ لَمْ يَتُبْ
إِلَى اللهِ عَبْدٌ تَوْبَةً لا أتوبُها
يَقِرُّ بِعَيْنِي قُرْبُها وَيَزِيدُنِي
بِها عَجَباً مَنْ كانَ عِنْدِي يَعيبُها
فَيا نَفْسُ صَبْراً لَسْتِ واللهِ فاعْلَمِي
بِأَوَّلِ نَفْسٍ غابَ عَنْهَا حَبِيبُها

فلمّا سمع أبوه هذه الأبيات انهملت منه العبرات، ثم أخذه بيده إلى محفل من الرجال، وسألهم أن يدعوا له بالفرج والخلاص من هذه الحال؛ فلمّا أخذ الناس بالدعاء له أنشد وقال:

ذَكرتُكِ والحجيجُ لهمْ ضَجيجٌ
بمَكَّةَ والقلوبُ لها وَجيبُ
فَقُلْتُ وَنَحْنُ في بَلَدٍ حَرامٍ
بِهِ واللهِ أُخْلِصَتِ القُلُوبُ
أتوبُ إليكَ يا رَحمٰنُ مِمَّا
عَمِلْتُ فَقَدْ تظاهَرَتِ الذُّنُوبُ
فأمَّا مِنْ هَوَى ليلَى وتركِي
زيَارتَها فَإنِّي لا أتوبُ
وَكَيْفَ - وَعِنْدَها قَلْبي رَهِينٌ -
أتوبُ إليكَ مِنْهَا أو أُنِيبُ

قال الرّاوي: ثمّ إنّه ترك أباه وانهزم، وقصد البراري والآكام، فتبعه أبوه وجماعة من قومه حتى أدركوه، وأرادوا أن يربطوه بالحبال، ويكتّفوه، فقال لهم: بالله عليكم تمهّلوا عليّ قليلاً، فإنّ قلبي قد أضحى عليلاً، ثم صاح صيحة عظيمة وأنشد يقول:

أحقًّا عبادَ اللهِ، أنْ لستُ وارداً
ولا صادراً إلا عليّ رقيبُ
ولا زائراً فرداً ولا في جَماعَةٍ
مِنَ النَّاسِ إلا قِيل أنت مُرِيبُ
وهلْ ريبَةٌ في أنْ تَحِنَّ نَجيبَةٌ
إلى إلْفِها أو أن يَحِنَّ نَجيبُ
وَكَيْفَ أعَزِّي القَلْبَ بَعْدَ فِراقِها
وإنّي على طُولِ الزَّمانِ حَبيبُ

وقال أيضاً :

إلى اللهِ أشْكو حُبَّ لَيْلَى كما شَكَا
إلى اللهِ فَقْدَ الْوَالِدَيْنِ يَتيمُ
يَتِيمٌ جَفَاهُ الأَقْرَبُونَ فَعَظْمُهُ
كَسِيرٌ وفَقْدُ الْوَالِدَيْنِ عَظيمُ
بَكَتْ كَبدي مِنْ فَقْدِها وَتَهَلَّلَتْ
دُمُوعي كَمُزْنٍ هَلَّ فَهْوَ سجُومُ
وإنَّ زَمَاناً فَرَّقَ الله بَيْنَنا
وَبَيْنَكِ يا لَيْلَى فَذاكَ مَشُومُ
دَعُونِي فما عَنْ رَأيكُمْ كان حُبُّها
وَلكِنَّهُ حَظٌّ لها وَقَسِيمُ

وقال أيضاً :

أيَا هَجْرَ ليْلى قَدْ بَلغْتَ بيَ المَدَى
وَزِدْتَ عَلَى ما لَمْ يَكُنْ بَلغَ الهَجْرُ
عَجِبْتُ لِسَعْي الدَّهْرِ بَيْني وَبَيْنَها
فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْننا سَكَنَ الدَّهْرُ
فَيَا حُبَّها زِدْنِي جَوًى كُلَّ لَيْلَةٍ
وَيَا سَلْوَةَ الأَيَّامِ مَوْعِدُكِ الْحَشْرُ
أبى القَلبُ إلّا حُبَّهَا عامرِيَّةً
لها كنيةٌ عَمرُو وليس لها عمرو
تَكَاد يَدي تَنْدَى إذا ما لَمَسْتُهَا
وَيَنْبُتُ فِي أطْرَافِهَا الورَقُ الْخُضْرُ

وَوَجْـــهٍ لَــهُ دِيــبَــاجَــةٌ قُــرَشِــيَّــةٌ
بِـهِ تُـكْـشَـفُ الْـبَـلْـوَى وَيُـسْـتَـنْـزَلُ الْـقَـطْـرُ

قال الرّاوي: فبكى أبوه شفقةً عليه، وهطلت دموعه على وجنتيه، ثم اعتنقه وقبّله بين عينيه، وقال له: يا ولدي إلى متى وأنت في هذا الشقاء العظيم والبلاء الجسيم، أما كفاك الجولان في القفار، وعدم الهجوع والقرار وسهر الليل والنّهار حتى عدمت النشاط، وصرت كلّ يوم في ضعف وانحطاط، فإن بقيت على مثل هذه الحال لا تزال في هزال وانتحال، لأن ليس في ذلك إلا إضاعة العمر والمصير إلى المهالك، فَعُدْ معي الآن إلى بني عامر، وكن منشرح الصّدر مطمّئن الخاطر، وأنا أتلافى هذه القصّة وأزيل عنك هذه الغصة.

قال: وما زال أبوه يشاغله بالأحاديث اللطيفة، والعبارات الظريفة، إلى أن راق ولان، ورجع معه إلى الأوطان، وزالت عنه الغموم والأحزان، وفرحت به الأهل والخلاّن، وصار عند أبيه في أعلى درجة وأرفع مكان، فهذا ما كان منه، وما جرى له من مكابدة العشق وحرّ الصبابة والوله. وأمّا ما كان من ليلى فإنّه كان قد شاع ذكرها بالآفاق، وتحدّثت فيها الناس في الحجاز وبلاد نجد والعراق، وتناشدوا ما قال فيها قيس من الأشعار الرقاق التي لم يسبقه عليها أحد من فحول الشعراء والعشّاق، فكان كلّ واحد يودّ أن ينظرها ويتمنّى أن يراها ويبصرها، فترادفت عليها الخطّاب، وكثرت عليها الطلاّب، ودخلوا على أبيها في ذلك من كلّ باب. وكان من جملتهم رجل بني ثقيف يقال له سعد بن منيف، وكان أعظم من طلبها قدراً، وأفخمهم ذكراً، فاستشار الأب ابنته ليلى، وأظهر لها رغبته في ذلك المولى، وقال لها: قد انتشر صيتك في بلاد العرب، وخطبك مني السادات أصحاب المناصب والرتب، وأنا أصدّ كل طالب ولا أصغي لخطبة خاطب خوفاً من زوج ذميم الأخلاق قبيح السيرة من المزاق لا تقدرين على معاشرته، وتتعبين في مرافقته إلى أن خطبك هذا

الإنسان، وهو من أكابر هذا الزمان وعمدة الذوات والأعيان، كثير المال محمود الخصال، قد تحلّى بالأدب والجمال، واتّصف بالهمّة العليّة والكمال، وقد أجبته إلى هذا السؤال وأزوّجك إيّاه دون بقيّة الرجال، لأنّ لا بدّ للمرأة من زوج يلمّها فيسترها ويفرج همّها. فلمّا سمعت ليلى من أبيها ذلك الخطاب أظهرت الكدر والاكتئاب، وعظم عليها ذلك الأمر، واكتوى قلبها بلهيب الجمر، لأنّ هذا الخبر كان لا يوافق غرضها، ولا يشفي علّتها ومرضها، لأنها كانت تحبّ قيساً، وتميل إليه، ولا يستقرّ خاطرها إلاّ عليه نظراً لما بينهما من المحبّة القديمة والصداقة القويمة، فأبت ولم تقبل، وفضّلت حلول الأجل، وقالت: هذا أمرٌ لا يتمّ أبداً ولو متّ قهراً وكمداً.

فلمّا سمع كلامها وعلم ما في ضميرها ومرامها تهدّدها بالكلام وشتمها، ودار به الغيظ، فلطمها فاجتمع عليها الجيران والأهل والخلاّن. فلمّا رأت ما حلّ بها من الهوان، وأنّ موج البلايا أحاط بها من كل مكان أجابت سؤاله بالكره والإجبار، لا بالطوع والاختيار. ثم ندمت على زواجها بذلك الرجل غاية الندم، وجرى قلم القضاء بما حكم، وصارت محبّتها له تطلّعاً ورؤيتها إيّاه تعسّفاً، فكان لا يقرّ لها قرار، ولا يطيب لها عيش لا باللّيل ولا بالنّهار. قال: ولمّا بلغ قيس هذا الخبر اضطرب وتحرّق قلبه والتهب، واستولى عليه الجنون بعد الهدوّ والسكون وأنشد يقول:

وَقَدْ خَبَّرُونِي انّ لَيْلَى تَزَوَّجَتْ
وَلا بُدَّ لِي مِنْ انْ أُلاقِي خَلِيلَها

فإنْ كانَ مِثْلِي لا أَلُمْها عَلى الهَوى
وإنْ كانَ دُونِي بِئْسَ ما قَدْ قَضَى لَها

وإنْ كانَ مِنْ أوْباشِ ما حَوَتِ القُرى
لَقَدْ تَعِسَتْ لَيْلَى وأضْنَتْ خلِيلَها

وقال أيضًا:

حَبيبٌ نأى عنّي الزّمان بِقُرْبِهِ
فَصَيَّرني فَرْدًا بغيرِ حَبيبِ
فَلي قَلْبُ مَحْزونٍ وَعَقْلُ مُدَلَّهٍ
وَوَحْشَةُ مَهْجورٍ وَذُلُّ غَريبِ
فيا عُقَبَ الأيّامِ هَلْ فيكِ مَطْمَعٌ
لِرَدِّ حَبيبٍ أوْ لِدَفْعِ كُروبِ

ثم خنقته العبرة وزادت عليه الحال، فخرج يهيم في الصحاري والتلال، ويطوف في قلل الجبال، ويتحمّل المشقّات والأثقال، ويقتحم موارد الأهوال حتى ضعف جسمه من شدّة الانتحال، وجفّ جلده على عظمه لقوّة الهزال، فشفق عليه الأهل والجيران والأصدقاء والخلاّن وقالوا لأبيه: لو كنت تحمله وتعرضه على طبيب لربّما انتفع بعلاجه، وتعود صحّته إليه عن قريب. فامتثل وخرج إلى الصحراء في طلبه حتى اجتمع به، فلاطفه بالكلام، ولاقاه بالبشاشة والإكرام، ثم إنّه سار به إلى طبيب في تلك الأطراف يقال له علقمة بن عسّاف، وهو في بلاد العرب مشهور يعالج كلّ مجنون ومسحور . فلمّا دخل عليه حدّثه بقصّة ولده على التمام، وما هو فيه من العشق والغرام، وكيف أنّه قد حمّل نفسه ما لا يرام إلى أن أنهكه السقام وأضناه وصار عبرة لمن يراه بعد أن كان فريد زمانه، ووحيد دهره وأوانه، وفاق بالفصاحة والأدب سائر أقرانه. فعند ذلك أخذ الطبيب يسقيه شربة بعد شربة ويكرّهه بالأحِبّة؛ فلمّا كثر عليه المقال أنشد وقال:

ألا يا طَبيبَ الجِنِّ وَيْحَكَ داوِني
فإنَّ طَبيبَ الأنْسِ أعْياهُ دائِيا

رُعاةَ اللَّيلِ كُونُوا كَيفَ شِئْتُمْ

فَقدْ أوْدَى بِيَ الحُبُّ المُتاحُ

وقال أيضاً:

ذكَرْتُ عَشِيَّةَ الصَّدَفَيْنِ لَيْلَى

وَكُلَّ الدَّهْرِ ذِكْرَاهَا جَدِيدُ

إذا حَالَ الْغُرَابُ الْجَوْنُ دُونِي

فَمُنْقَلَبِي إلى لَيْلَى بَعِيدُ

عَلَيَّ ألِيَّةٌ إنْ كُنْتُ أدْرِي

أيَنْقُصُ حُبُّ لِيْلَى أمْ يِزِيدُ

لها في طَرْفِهَا لَحَظاتُ حَتْفٍ

تُمِيتُ بها وتُحْيِي مَنْ تُرِيدُ

وإنْ غَضِبَتْ رَأيْتَ النَّاسَ هَلْكَى

وإنْ رَضِيَتْ فأرْوَاحٌ تَعُودُ

وقال أيضاً:

أقولُ لأصحابِي وقد طَلَبُوا الصَّلَى

تَعَالَوا اُصْطَلُوا إنْ خِفْتُمُ القُرَّ من صَدْرِي

فَإنَّ لَهِيبَ النَّار بيْن جَوَانِحِي

إذا ذُكِرَتْ لَيْلَى أحَرُّ مِنَ الْجَمْرِ

أبِيتُ صَرِيعَ الْحُبِّ دَامِ مِنَ الهَوَى

وَأُصْبِحُ مَنْزُوعَ الفُؤَادِ مِنَ الصَّدْرِ

عَلَيْكِ سَلَامُ الله يا غَايَةَ المُنَى

وَقاتِلَتِي حَتَّى الْقِيَامَةِ وَالْحشْرِ

أتَيْتُ طَبِيبَ الأنسِ شيخًا مُداوِيًا
بِمَكَّةَ يُعْطي في الدَّواءِ الأمانِيا
فَقُلْتُ له يا عمُّ حِلْمَكَ فَاْحتَكِمْ
إذا ما كَشَفْتَ اليَوْمَ يا عمُّ ما بِيا
فَخاضَ شَرابًا بارِدًا في زجاجةٍ
فَطَرَّحَ فيها سَلْوَةً وَسَقانِيا
فَقُلْتُ: ـ وَمَرْضى الناسِ يَسْعَونَ حَوْلَه ـ:
أعُوذُ بِرَبِّ الناسِ مِنْكَ مُداوِيا
فَقالَ: شِفاءُ الحُبِّ أن تُلْصِقَ الحَشا
بِأحْشاءِ مَنْ تَهْوى إذا كُنْتَ هاوِيا

قال الطبيب: نعم ليس للعاشق الكئيب داء إلاّ منادمة الحبيب فإذا حصل على ذلك الغرض زال عنه هذا المرض. هذا وقيس يعضّ على لسانه وشفتيه حتى كادَ من فرط الحزن يقضي عليه، ثم نهض وخرج على وجهه يهيم في الفلوات. فبينما هو يدور إذ رأى ناراً في بعض الجهات فدنا منها، وإذ حولها قوم رعاة فأنشد وقال:

رُعاةَ اللَّيْلِ ما فعلَ الصَّباحُ
وما فَعَلَتْ أوائِلُهُ المِلاحُ
وما بالُ النُّجُومِ مُعَلَّقاتٍ
بِقَلْبِ الصَّبِّ ليس لها بَرَاحُ
كأنَّ القَلْبَ لَيْلَةَ قِيلَ يُغْدَى
بِلَيْلَى العامِرِيَّةِ أو يُراحُ
قَطاةٌ عَزَّها شَرَكٌ فَباتَتْ
تُجاذِبُهُ وقد عَلِقَ الجَناحُ

وقال أيضاً:

أَلا زَعَمَتْ لَيْلَى بِأنْ لا أُحِبُّهَا
بَلَى وَاللَّيَالِي العَشْرِ والشَّفْعِ وَالْوِتْرِ
بَلَى وَالَّذِي لا يَعْلَمُ الغَيْبَ غيْرُهُ
بِقُدْرَتِهِ تَجْري السَّفَائِنُ في الْبَحْرِ
بَلَى وَالَّذِي نَادَى مِنَ الطُّورِ عَبْدَهُ
وَعَظَّمَ أيَّامَ الذَّبِيحَةِ وَالنَّحْرِ
لَقَدْ فُضِّلتْ لَيْلَى عَلَى النَّاسِ مِثْلَ مَا
عَلَى ألْفِ شَهْرٍ فُضِّلَتْ لَيْلَةُ القَدْرِ

وقال أيضاً:

أنِيري مَكَانَ البَدْرِ إنْ أفَلَ الْبَدْرُ
وَقُومِي مَقَامَ الشَّمسِ ما اسْتَأْخَرَ الفَجْرُ
فَفِيك مِنَ الشَّمْسِ المُنِيرَةِ ضَوْؤُهَا
ولَيْس لهَا مِنْكِ التَّبَسُّمُ والثَّغْرُ
بَلَى لَكِ نُورُ الشَّمْسِ والبَدْرُ كُلُّهُ
ولا حَملَتْ عَيْنَيْك شَمْسٌ ولا بَدْرُ
لَك الشَّرْقَةُ اللألاءُ والبَدْرُ طَالِعٌ
وليس لها مِنْك التَّرائبُ والنَّحْرُ
ومن أيْنَ لِلشَّمْسِ المُنِيرَةِ بالضُّحى
بِمَكْحُولَةِ الْعَيْنَيْنِ في طرْفِهَا فَتْرُ

قال الراوي: وأقام قيس مع الرعيان نحو ساعة من الزمان، وهو ينشد الأشعار، ويترنم ويهيم بما يتكلّم، ثم ترك ذلك المكان، وقصد بعض

الهضاب، وصار يتمرغ بالعظام، ويلعب بالتراب. فبينما هو على مثل ذلك الشأن إذ مرّ به رجل من أكابر الأعيان، وفي صحبته جماعة من الخدم والغلمان يقال له نوفل بن مساحق وهو من بني بارق، فلمّا رآه على تلك الحال أخذته الدهشة واعتراه الانذهال، وسأل عنه بعض الرجال، فقال له: هذا مجنون بني عامر الذي فاق بالفصاحة والنظام على كُلّ أديب وشاعر، وكان قد عشق جارية في هذه الأيام يقال لها ليلى بنت مهدي بن عصام، وتعلّق قلبه بحبّها وهام، وهجر الأهل والأحباب، وقصد البراري والهضاب، واختار القفار وطناً، واتّخذه لنفسه سكناً.

فقال نوفل: قد كنت أحِبّ أن أنظر هذا الرجل وألقاه وأحظى برؤياه لأني قد سمعت كثيراً عنه، فكيف لي بالدنوّ منه؟

قال: اذكر له ليلى فمتى ذكرتها فاق، وصفا خاطره وراق، وأنشد من أشعاره البديعة ما لم يسبقه إليه أحد من شعراء مضر وربيعة فعند ذلك تقدّم نوفل إليه، وسلّم عليه، وقال له: بحياة ليلى التي هي عندك أعظم من كلّ شيء شنّف من نفائس أشعارك أذنيّ، لأنّه قد بلغني بأنّك أفصح الناس كلاماً، وأجودهم شعراً ونظاماً. فبكى قيس وتململ لمّا سمع كلام نوفل وأنشد يقول من فؤاد متبول:

تَـذكّـرتُ لَـيْـلـى والـسّـنـيـنَ الـخَـوالِـيـا
وأيّـام لا نَـخْـشَـى عـلـى الـنّـاسِ عـادِيـا
فَـيـا لَـيْـلَ كَـمْ مِـنْ حـاجَـةٍ لـي مُـهِـمَّـةٍ
إذا جِئْتُكُمْ بـالـلّـيْـلِ لـم أدرِ ما هِـيـا...

قال الراوي: فلمّا انتهى قيس من شعره اهتزّ نوفل طرباً، وتمايل عجباً وقال: له : لله درّك على هذه الألفاظ الرشيقة والمعاني البديعة الرقيقة، فإنّها تشرح الخواطر والقلوب، وتجلى الغموم والكروب، وتسلي المحبّ على فراق

المحبوب، لأنّك ما تركت من ظرائف الغزل والنسيب وأنواع البديع في وصف الحبيب مقالاً لشاعر لبيب، فهل الحبّ صيّرك إلى ما أرى فقال: نعم. وقد سبّب لي أكثر ممّا ترى، وأنشد وقال:

أيـا حَـدَثـات الـحـيِّ حِـيـنَ تَـحَـمَّـلُـوا
بِـذي سَـلَـمٍ لا جـادَكُـنَّ رَبـيـعُ...

وقال أيضاً:

طَـرِبْـتُ وَهـاجَـتْـني الـحُـمُـولُ الـدَّوافِـعُ
غَـداةَ دَعـا لِـلْـبَـيْـنِ أسْـفَـعُ فـارِعُ...

قال الرّاوي: ثمّ تزايدت حسراته وتصاعدت زفراته، فتنهّد وبكى، وتَأوّه وشكا، وقال: جفتنا الأصحاب، وتخلّت عنّا الأهل والأحباب، فيا له من أمر عظيم وخطب جسيم، فقال له نوفل: اعلم أيّها الأخ المفضل إن دمت على هذه الحالة فإنّك هالك لا محالة، فتب إلى الله وارجع إليه واعتمد في أمُورِك عليه يكشف عَنْك هذا العرض، ويزيل من قلبك المرض. قال: يا أخي كيف أطيق الصبر، وقد اشتعل قلبي من الهوى بجمر، بالله اذهب عنّي ودعني أقاسي العذاب، وأقتحم موارد الهلاك والعطب، لأنّك كلّما عزلتني ونهيتني ونصحتني ازدادت فيها محبّتي، وقويت إليها رغبتي. ثم غلب الحال فأنشد وقال:

إلَـيـكَ عَـنِّـيَ إنِّـي هـائِـمٌ وَصِـبُ
أمَـا تَـرَى الْـجِـسْـمَ قـد أودَى بـه الْـعَـطَـبُ
لله قَـلْـبِـيَ مـاذا قـد أُتِـيـحَ لـه
حَـرُّ الـصَّـبـابـةِ والأوْجـاعُ والْـوَصَـبُ

ضَاقَتْ عَلَيَّ بِلَادُ اللهِ مَا رَحُبَتْ
يَا لَلرِّجَالِ فهلْ في الأرض مُضْطَرَبُ
أَلْبَيْنُ يُؤْلِمُنِي، وَالشَّوْقُ يَجْرَحُنِي
وَالدَّارُ نَازِحَةٌ وَالشَّمْلُ مُنْشَعِبُ
كيف السَّبيلُ إلى ليلى وقد حُجِبَتْ
عَهْدي بها زمَنًا ما دُونَهَا حُجُبُ

قال الرّاوي: فتعجّب نوفل من سرعة بديهته، وعذوبة ألفاظه، وقوّة فطنته، وكان قد مال إليه، وأخذته الشفقة عليه، فقال له: أيّها الحبيب، والشاعر اللبيب، إنّه يعزّ عليّ، ويعظم لديّ، أنّي أراك في هذه الحال، تقاسي العذاب والنكال، فهل لك أن تسير معي إلى الديار، وأنا أزوّجك ببعض البنات الأبكار من هي أحسن وأحلى من ابنة عمّك ليلى.

فلمّا سمع كلامه جمدت عيناه، وعظمت بلاياه، وقال: لا فعلت قولك أبداً، ولا تركت ليلى على طول المدى. فعند ذلك تركه نوفل، وسار، وبقي قيس يهيم في السهول والأعوار ينشد الأشعار، ويتقوّت بنبات القفار ويقاسي المشقّات والأخطار.

قال الرّاوي: وكانت ليلى منذ تزوّجت، لا تنشف لها دمعة، ولا تبرد لها لوعة، وذلك لخوفها على قيس ووجدها به، لأنّها كانت مشغوفة بحبّه، وكان لا يقرّ لها قرار، ولا يطاوعها اصطبار، بل كانت تبكي في الليل والنّهار بدموع غزار إلى أن فار دم قلبها من فرط عشقها وحبّها. ولمّا طال عليها الحال أنشدت تقول من فؤاد متبول:

إذا عَثَرَتْ رِجْلِي بَدَأْتُ بِذِكْرِهِ
وأحلُمُ فِي نَومِي بِهِ وأعيشُ

إذا ذُكِـرَ الـمَـجْـنُـونُ زالَـتْ بِـذِكْـرِهِ
قُـوى الـنَّـفْـسِ أو كـادَ الـفُـؤادُ يَـطِـيشُ
فَـوالله مـا زالَ الـفُـؤادُ بِـحُـبِّـهِ
وإنْ كـانَ صَـدْرِي فـي هَـواهُ يَـجِـيشُ
تَـوَعَّـدَنـي قَـوْمـي بِـقَـتْـلِـي وَقَـتْـلِـهِ
فَـقُـلْـتُ اقْـتُـلُـونـي واتْـرُكُـوه يَـعِـيشُ

قال الرّاوي: ثم استدعت بغلام من أهل الحيّ كانت تعتمد عليه في كلّ شيء، وكتبت إلى قيس مع ذلك الغلام تقول: «بسم الله الرحمن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، اعلم يا ابن العمّ، وقاك الله عاقبة الضير والغم، إنه قد أوحشني فراقك، وآلمني اشتياقك، وقد مرّ عليّ زمان، وأنا مواظبة على الأحزان، لا أرى طريقاً للمفر، ولا قرار للمستقرّ إلى أن ضاق صدري، وقلّ صبري، وتواترت عليّ الأسقام، من كثرة البكاء، وقلّة الأكل والطعام، ولا شكّ بأنّ حياتي في هذه الدنيا صارت قصيرة، وأيام إقامتي يسيرة حيث لم يعد لي صبر على الفراق، وقد اكتوى قلبي بنيران الوجد والاشتياق، وما بقي في الأمر إلاّ التسليم والانقياد على ما قدّره علينا ربّ العباد، وختمت كلامها بهذه الأبيات:

سـلامٌ عَـلَـيْـكُـمْ لا سـلامُ مَـلامَـةٍ
ولـكـنْ سـلامٌ لِـلْـمُـحِـبِّ عَـطُـورُ
لَـقَـدْ عِـيلَ صَـبْـري بَـعْـدَكُـمْ وتَـكـاثَـرَتْ
هُـمـومـي ولـكـنَّ الـمُـحِـبَّ صَـبُـورُ
فَـصَـبْـري عـلـى رَيْـبِ الـزَّمـانِ وَجَـوْرِهِ
لَـعَـلَّ صُـرُوفَ الـدّائـراتِ تـدورُ

وضمَنته أيضاً بهذين البيتين:

وإنّــي لأرجــو قُــرْبَــكُــمْ ووِصــالَــكُــمْ
ومِــنْ دونِــكُــمْ أمْــرٌ لَــدَيَّ مُــخــيــفُ
فلا تَعْجَبوا إنْ كانَ في الحُبِّ صادِقاً
فــإنَّ لَــكُــمْ دونَ الأنــامِ حــلــيــفُ

ثم إنّها أمرت ذلك الشاب أن يسير بطلبه في البراري والهضاب، وإنّها بانتظار الجواب، فامتثل وسار، وقصد الروابي والقفار، ولا زال يطلبه في جوانب البرّ حتى التقى به في يوم شديد الحرّ، قد التجى إلى كهف جبل عظيم بالقرب من ديار بني تميم، وهو مستلقى على ظهره، غارق في بحار فكره ينشده ويقول:

أَحِــنُّ إلــى لــيــلــى وإنْ شَــطَّــتِ الــنَّــوَى
بــلَــيْــلَــى كــمــا حَــنَّ الْــيَــرَاعُ الْــمُــثَــقَّــبُ
يــقــولــون لَــيْــلَــى عَــذَّبَــتْــكَ بِــحُــبِّــهــا
ألَا حَــبَّــذَا ذاك الــحــبــيــبُ الْــمُــعَــذِّبُ
وَلَــو أنّ عَــيْــنــي طــاوَعَــتْــنِــي لــم تَــزَلْ
تُــرَقْــرِقُ دَمْــعًــا أو دَمًــا حِــيــنَ تَــسْــكُــبُ

قال الرّاوي: فدنا منه الغلام وحيّاه بالسلام، ولاطفه بالكلام، وقال له:

أيّها الشاب الظريف، والأديب اللطيف، إنّ محبوبتك ليلى تسلّم عليك، وقد أرسلتني بكتاب إليك، فيه ما يسرّ الخواطر، ويشرح القلوب والنواظر، فلمّا ذكر له ليلى رجع عقله إليه، واستوى جالساً على قدميه، وتناول الكتاب وقراه، ووقف على فحواه، فاضطرب وتنهّد، وكفكف دموعه وأنشد:

إذَا جاءَني مِنْهَا الكِتَابُ بِعَيْنِهِ
خَلَوْتُ بِبَيْتِي حَيْثُ كُنْتُ مِنَ الأَرْضِ
وإنِّي لأَهْوَاهَا مُسِيئاً ومُحْسِناً
وأقْضِي على نَفْسِي لها بِالَّذي تَقْضي
فحتَّى متى رَوْحُ الرِّضَا لَا يَنَالُنِي
وحَتَّى متى أيَّامُ سَخْطِكِ لا تَمْضِي

ثم أجابها على كتابها يقول: من قيس بن الملوّح الهائم الوامق والحبيب الصادق إلى سيدة الملاح وكوكب الصباح، درّة الصدف وياقوتة الشرف، مَنْ قَد اتّصفت بالمحاسن البهيّة والصفات العليّة، والآداب السنيّة ليلى العامرية. إنّني بينما كنت متشوّقاً إلى استماع أخبارك، واستكشاف آثارك، واستماع لفظك وما لك ومشاهدة أنوار جمالك إذ وردت لي عزيز رسالتك الموسومة بسيماء المحبّة الفائقة المسفرة عن ازدياد الصحبة والصادقة، فتلقاها القلب بالفرح، وزال عنه الغمّ وانشرح، غير أنّه لا أخفاكِ ما أنا فيه من الكدر والقلق والضجر، وكثرة البكاء والسّهر، وكيف أنّي تركت الوطر المألوف، وانفردت في الروابي والكهوف، أهيم مع الوحوش والغزلان، وأنتقل من مكان إلى مكان، وحيداً عرياناً ذليلاً مهاناً، أقاسي ضرًّا وأحزاناً لا يستقيم لي حال، ولا يرتاح لي بال حتى صرت نحيلاً كالخيال، وذلك من كثرة الأشواق، وتباريح الهوى، ومرارة الفراق، فقاتل الله أباكِ الغدّار، وبلاه بالويل والدمار، لأنّه كان سبب بليّتي وطردي عن أهلي وعشيرتي، وما كفاه ذلك حتّى زوّجك برجل غريب، واختار البعيد على القريب، وهذا شرح ما بي من الشقاء والتعذيب، وإنّي على طول الزمان حبيب.

قال الرّاوي: ثمّ تصاعدت من أنفاسه الزفرات، فختم كلامه بهذه الأبيات:

أيا مُهْدِيًا نحوَ الحَبيبِ رِسالَتي
تَلَطَّفْ فإنّي في هَوى وَهَوانِ
فَمَنْ مُبْلِغُ الأحْبابِ عَنّي مقالةً
بِأنّ فؤادي دائمُ الخَفَقانِ
وإنّي لَمَمْنُوعٌ مِنَ النَّوْمِ مُذْنَفٌ
وَعَيْناي مِنْ وَجْدِ الأسَى تَكِفانِ

قال الرّاوي: ثم إنّ ذلك الشاب رجع إلى ليلى بالجواب، وأخبرها عن قيس وأحواله، وما يقاسي من وجده وبلباله. فتشوّش خاطرها وتكدّرت ضمائرها، وتضاعف همّها وغمّها، وتحسّرت على قيس ابن عمّها، فكانت تبكي عليه في الليل والنّهار، وتنشد فيه رقيق الأشعار، ودامت على ذلك مدّة مديدة، وأيّاماً عديدة. قال: واتّفق في وقت من الأوقات أنّ جاريتها رأت في بعض الطرقات صيّاداً معه خمسة غربان، فاشترتهم، وأتت بهم إلى سيّدتها، فخرجت بهم ليلى إلى خارج البيوت، وجعلت تضرب غراباً غراباً حتّى يموت، فتعجّب زوجها واندهل، وقال لها: ما الذي أحوجك إلى هذا العمل؟ فقالت له: إنّ نعيق الغراب يدلّ على فراق الأحباب، وتمزيق شمل الأصحاب، وأنّ ابن عميّ قيساً ذكرهم في شعره جملة أمرار، وأمرهم أن يقعوا على عرصات القفار وقد قال:

ألا يا غُرابَ البَيْنِ عَذَّبْتَ مُهْجَتِي
ولا زِلْتَ بالتَّبعادِ تَكْوِي فؤادِيا...

فآليت أن لا أقع بغراب بعد هذا المقال إلاّ قتلته في الحال، واعلم يا هذا حفظك الله وهداك، إن تزويجي إيّاك لم يكن رغبة في جمالك، ولا في رفعة مقامك وكثرة مالك، وقد كنت حلفت أن لا أتزوج بعد قيس أبداً، ولو متّ شوقاً وكمداً، لأنّه صاحبي ومعتمدي وقرّة عيني وكبدي، وحبّه لا ينتزع

من قلبي وجسدي، وليس في ذلك من عار ولا عيب، ولا شنار، لأنّ محبّتي له لم تكن صادرة إلاّ عن نيّة صالحة وطويّة طيّبة زكيّة الرائحة، ولكن كتب عبد الملك بن مروان يأمر أبي بتزويجي فكان من الأمر ما كان، ولكنّي سأصبر على ما رقمه القلم، وأثبته الله حيث حكم.

قال الرّاوي: فلمّا سمع زوجها ذلك الخطاب اشتبه من كلامها، ووقع في اضطراب، وأخذته الغيرة، وداخله الشكّ والارتياب، وتغيّرت نيّته عليها، وتقدّم ضميره بالسوء إليها، ثمّ إنّه ذهب لأبيها في الحال، وقصّ عليه ما سمعه منها من المقال، فخجل ذلك الخبيث عند سماعه هذا الحديث، واضطرب جسمه وارتجف، وقال له: لا تخف، ثم أخذ يلاطفه بالحديث والكلام، وأخبره بخبر قيس على التمام، وكيف أنّه حجبها عنه من سنين وأعوام، وأخرج له كتاب عبد الملك بن مروان، وقال له: إنّ الخليفة هدر دمه إن عاد اجتمع بها في مكان، وما زال يحدّثه بمثل هذا الكلام حتّى زالت عنه الشكوك والأوهام، واشتاق إلى رؤية قيس ومنادمته ومال إلى معرفته، وما زال يترقّب الفرص إلى أن خرج ذات يوم إلى الصيد والقنص فالتقى به وهو في روضة خضراء بالقرب من الصحراء وبقربه قطيع من الغزلان والوعول، وهو ينظر إلى ظبية ترضع خشفها وهو ينشد ويقول:

نَظَرْتُ بِبَطْنِ مَكَّةَ أمّ خَشْفٍ
مُنَعَّمَةً وَنَاشِزَةً طِلاها
فَأعْجَبَنِي مَلامِح مِنْكِ فِيها
فَقُلْتُ أخا الغَرِيبِ أما تَراها
وَلَوْلا أنّنِي رَجُلٌ حَرامٌ
ضَمَمْتُ قُرُونَها وَلَثَمْتُ فاها

فتقدّم زوج ليلى إليه، وسلّم عليه وأنشد يقول:

وَمِنْ عَجَبٍ جُنونُكَ في فَتاةٍ
مُزَوَّجَةٍ سِواكَ وَلَنْ تَراها
أيا مَجْنُونُ كَمْ تَهوى بِليلى
كَأنَّ اللهَ لَمْ يَخْلُقْ سِواها

قال الرّاوي: فصاح قيس من شدّة الوجد والوسواس، وسأل عنه بعض الناس، فقيل له: هو بعل ليلى التي تحبّها وترغب قربها، فخرّ مغشيًّا عليه، ثم فاق فأشار يقول:

بِعَيْشِكَ هَلْ ضَمَمْتَ إليكَ لَيْلَى
قُبَيْلَ الصُّبْحِ أم قَبَّلْتَ فاها
وَهَلْ دارَتْ يداكَ بِمَنْكِبَيْها
وَهَلْ مالَتْ عَلَيْكَ ذُؤابَتاها

فضحك زوج ليلى، وتبسّم، وقال: اللهم إذا حلّفتني فنعم؛ فلمّا سمع قيس منه ذلك المقال اضطرب فؤاده، وأنشد وقال:

أفِي كلِّ يَوْمٍ أنْتَ تَحْظى بِقُرْبِها
وَتَلْثِمُ فاها أو تغمُّ ثُدَيّاها
وَتَعْتَنِقُ الأرْدافَ مِنها وَخَصْرَها
وَتَنْشَقُ مِنْ لَيلى العَشِيَّةِ ريّاها
وفِي كُلِّ وَقْتٍ أنتَ باللهِ لازِمٌ
ذُؤابَتَها مُسْتَمْتِعٌ مِنْ مُحَيّاها

قال الرّاوي: فخجل زوج ليلى وتكرّر، وتشوّش خاطره وتعكّر، وقال له:

احذر يا قيس من غفلات الزّمان وسطوات الأعوان، فإنّ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قد هدر دمك مرّة ثانية إن كنت لا تنتهي عن ذكر هذه الجارية، لأنّك فضحتها في الأشعار، وهتكتها في سائر الأقطار، وقد أعلمتك بحقيقة الخبر فكن من ذلك على حذر. فزاد بقيس القلق والضجر، وفاض دمعه على خدّيه وانحدر، وقال له: والله إنّه منذ ثلاثة أيام بينما كنت أطوف في بعض الآكام، زارني طائران، وقالا لي: وحقّ الملك الديّان لقد قضى الرحمن بانقضاء أيّام عبد الملك بن مروان، ثم أطرق مليًّا، وأقام مدّة لا يتكلّم شيئاً، ثم أمعن فيه النظر وأجال قداح الفكر، وقال: أقسم بجامع الشتات ومخرج النبات، إنّها سوف تصلكم الأخبار أنّه قد مات. فاندهش زوج ليلى من كلامه، وارتدّ راجعاً إلى خيامه، وما مضى أكثر من ثلاثة أيّام بعد ذلك الكلام حتى شاع الخبر بموت السُّلطان في قبائل العربان، فتعجّب زوج ليلى من ذلك الاتّفاق الغريب، والأمر العجيب.

قال الراوي: وكان أبو قيس لا يطيب له عيش، ولا يرتاح له بال خوفاً على ولده من الهلاك والوبال، لأنّه كان عالماً بالحال الذي هو فيه، والشقاء الذي كان يؤلمه ويؤذيه؛ فخرج في طلبه ذات يوم مع جماعة من القوم، وما زالوا يقطعون السهول والآكام مدّة ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع التقوا به وهو على الرمل جالس، مطرق رأسه إلى الأرض عابس، فبكى أبوه وترامى عليه، وقبّله بين عينيه، وقال له: يا ولدي ومهجة كبدي، إلى متى وأنت في هذه الحال تقاسي الشدائد والأهوال والمشقّات والإذلال بعد ذلك الجاه والدلال، فأين عقلك وحلمك وأدبك وفهمك فقد كفاك ما دهاك، فقم بنا الآن نرجع إلى الأوطان، فإن هذا الذي أنت فيه إنّما هو من عمل الشيطان، فازجرْه عنك، واتق الرحمن. فقال: إنّي لك سامع، ولأمرك طائع إلاّ في هذا الشان، فإنّه خارج عن حدّ الإمكان، ثم فاضت عيناه بالدموع وأنشد من فؤاد مصدوع:

يا حَبَّذا عَمَلُ الشَّيْطانِ مِنْ عَمَلِ
إنْ كانَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ حُبّيها

قال له أبوه: اذكر الله في نفسك قبل حلول رمسك، فقال: قد صدقت وبالحق نطقت، وأنشد يقول:

دَعَوتُ إلهي دعوةً ما جَهِلْتُها
وربّي بما تُخفي الصّدورُ بصيرُ
لئنْ كان يُهدي بَرْدَ أنيابها العلا
لأفقرَ منّي إنّني لَفقيرُ
فقد شاعَتِ الأخبارُ أنْ قد تزوَّجَتْ
فهل يأتيَنّي بالطَّلاقِ بَشيرُ

قال الرّاوي: ثم إنّه تركهم، وذهب وتبطّن في ذلك البرّ، وانقلب وما زال يجول من مكان إلى مكان حتى وصل إلى جبل يقال له توباد وكان كثيراً ما يجتمع بليلى في ذلك المكان. فلمّا رآه تذكّر أيّام الصبا، وتجدّدت عليه الهموم والأحزان، فأنشد وقال:

وأجْهَشْتُ للتَّوباد حتّى رأيْتُهُ
وَنادى بأعْلَى صَوتِهِ ودعاني...

قال الرّاوي: ثم إنّه بكى من فؤاد مجروح، وإذا به يسمع صوت حمامة تندب إلفها وتنوح فأنشد وقال:

حمامَةُ أيكٍ غَرَّدَتْ فَتَرَنَّمَتْ
وَكادَتْ بِتَذْكارِ الأحبَّةِ تَفْضَحُ
وَتُبْدِي بأسْرارٍ لَها بَعْدَ نَوْحِها
وَتُظْهِرُ مَكْنُونَ الغَرامِ وتُفْصِحُ

ثمّ إنّه ترك ذلك المكان، وقصد الروابي والكثبان، وهو ينشد الأشعار الحسان، ويهيم مع الوحوش والغزلان، واتّفق أنّ رجلاً من بني أسد خرج ذات يوم من الديار طالباً البراري والقفار، قال الرجل: وما زلت أقطع السهول والأوعار إلى أن توصلت إلى روضة كثيرة الأزهار والرياحين والأنوار، فحدَّثَتني نفسي أن أقيم فيها، وأتنزّه في بعض نواحيها، فنزلت في أرجاء تلك الأزهار المونقة والأنوار البديعة المورقة، وأنخت ناقتي إلى قنوات شجرة صغيرة، وجلست برهة يسيرة، فبينما أنا أتأمّل في تلك الروضة والمروج الطويلة العريضة، إذ سقط سرب من الجراد كثير الأعداد على ذلك الوادِ، فافترشت جنباتها وأرضها، وأخذت طولها وعرضها، فتعجّبت من تلك المناظر البهيّة والروائح الزّكية، وإذا أنا بشخص قد وفد إليّ من صدر البريّة، ناحل الجسم، عار من اللحم، ليس على جسده غير شعره، وهو منسدل على صدره، فراعني منظره، واندهشت، وخفق فؤادي وارتعشت، وانقطع كلامي وصوتي، وخشيت أن يكون فيه هلاكي وموتي، وما شككت إلاّ أنّه شيطان، أو مارد من الجان، فلمّا دنا منّي أنشأ يقول:

حَبَّ إلَيْنا بِكَ يا جَرادُ
أرْضٌ وإنْ جاءَتْ بِكَ الأكْبادُ
وَضاقَتِ الأضْدارُ والأوْرادُ
ولَمْ يَكُنْ فيكَ لَنا عتادُ

فقلت له: إنسيّ أم جنّي، فأنشد يقول:

خَليلِي فإنّي بالهُيامِ مُعَذَّبُ
فإيّاكَ عنّي لا يَكُنْ بِكَ ما بِيا...

قال الرّجل: ثم خرّ مغشيًّا عليه، فبادرت إلى الماء، ونضحت على وجهه وأذنيه، فأفاق بعد حين، وأنشد يقول من فؤاد حزين:

بِـلادِي لَـوْ فَـهِـمْـت بَـسَـطْـت عُـذْرِي

إذا مــا الــقَـــلْـــبُ عـــاوَدَهُ نُـــزُوعُ

إلـى أهْــلِ الــكِــرامِ تُــســاقُ نَــفْــسِــي

فَـــهَـــلْ يَـــوْمــاً إلـــى وطـــنـــي أرِيـــعُ

قال الرجل: فتعجبّت من شدّة عشقه وغرامه ورقّة شعره وعذوبة كلامه، فقلت له: ويحك يا أخا العرب، وسيّد أهل الفصاحة والأدب، إنّي أراك في عذاب أليم، وخطر عظيم، وحال غير مستقيم، ولا شكّ أنّ هذا البلاء الذي أنت فيه، والعناء الذي تقاسيه ناتج عن هوادس رديّة ووساوس شيطانيّة، فبادر الآن واستعمل فكرك الرزين وتبْ إلى ربّ العالمين، فهو يكشف عنك هذا الداء الدفين، لأنّه سميع مجيب، ومن اتّكل عليه فلا يخيب؛ فلمّا سمع كلامي بكى من عظم جواه حتّى تزلزلت أركان أعضاه، وأنشد وقال:

أتـانِـي هَـواهـا قَـبْـلَ أنْ أعْـرِفَ الـهَـوى

فَـصـادَفَ قَـلْـبًـا خـالـيًـا فَـتَـمَـكَّـنـا

فقلت له: استشعر الصبر يا ابن الكرام، واستبقِ مودّة الحبيب بكتمان العشق والغرام، فكان من جوابه أن قال:

ألا قُـلْ لِـمَـنْ أمْـسَـيْـتُ مُـضْـنًـى بِـحُـبِّـهـا

وَمَنْ هيَ رَجاءُ النّفسِ بالبُعْدِ والقُرْبِ

أنـاخَ هَـواهـا فـي فُـؤادِي فَـصـادَنـي

وَمَنْ ذا يطيقُ الصَّبْرَ عَنْ مُجْمَلِ الحُبِّ

فأقسمت عليه أن ينشدني أحسن مقاله في وصف المحاجر والنهود والأطراف والخدود، فأنشد يقول:

وَمَـفْـروشَـةِ الـخَـدَّيْـنِ وَرْدًا مُـضَـرَّجًـا

إذا جَـمَّـشَـتْـهُ الـعَـيْـنُ عـاد بَـنَـفْـسَـجًـا

شَـكَـوْتُ إلـيـهـا طُـولَ لَـيْـلِـي بِـعَـبْـرَةٍ
فـأَبْـدَتْ لـنـا بِـالـغُـنْـجِ دُرًّا مُـفَـلَّـجَـا

قال الرجل: ثم قطع شعره وذهب، وطلب الهزيمة والهرب، فانذهلت من أمره، ونهضت مسرعاً في أثره، طالباً الزيادة من شعره، فلم أدركه إلاّ بعد الجهد، وقد تعلّق بحبال نجد، فرجعت عنه، وقد تعجّبت منه.

وحدّث رجل آخر من بني كنانة، أهل الصدق والأمانة، قال: خرجت في بعض الأسفار أطوي الفيافي والقفار، والسهول والأوعار، فانتهى بي التسيار إلى غدير كبير كأنّه البحر المسْتدير، فرأيت في بعض نواحيه جارية كأنّها بدر التمام، وفي يدها بردة وقصعة مملوءة من الطعام، فتقدّمت إليها، وسلّمت عليها، فردّت عليَّ السَّلام بأفصح كلام، فبينما أنا أتأمّل فيها، وأنظر إلى حسن معانيها إذ أقبلت عانة من الغزلان طالبة الماء من ذلك المكان، وفي أوائلها رجل عريان، وهو نحيف الجسم، كئيب النفس، قد أسودّ جلده من لفح البرد وحرّ الشمس، فأومت الجارية إليه، وصاحت عليه، وأنشدت تقول:

وخـبَّـرتُـمـانـي أنّ تَـيْـمـاءَ مـنـزِلٌ
لِـلَـيْـلـى إذا مـا الـصَّـيْـفُ أَلْـقَـى الـمَـرَاسِـيَـا
فـهـذي شـهـورُ الـصَّـيْـفِ عـنَّـا قـد انـقـضـتْ
فـمـا لِـلـنَّـوَى تَـرمـي بـلَـيْـلـى الـمَـرَامِـيَـا

فلمّا سمع كلامها، تقدّم إليها حتّى صار أمامها، فألقت نفسها عليه، وقبّلته وأعْطَتهُ البردة، فأخذها وستر عورته، ثم ناولته الطعام، فجلس وأكل، وهو يبكي ويتململ. قال الرجل: فتعجّبت من ذلك غاية العجب، والتفتَ إلى الجارية وقال لها: يا حرّة العرب، من يكون هذا الغلام، وماذا جرى عليه من الأحكام، لأني أرى صفته غريبة، وحالته رديئة كئيبة، فقالت: هذا والله أخي

وشقيقي ومهجة فؤادي ورفيقي، وما كانت هذه الصفة صفته، ولا هذه الحالة حالته، وإنّما كان وحيد عصره، ونتيجة دهره، ولا هذه الحالة حالته، مشكور السيرة، ظاهر السريرة، فصيح الكلام، رفيع المقام، محبوباً من الخاص والعام، قد اشتهر بالكرم، وعلو الهمم، ومكارم الأخلاق والشيم، وانتشر بها صيته بين العرب والعجم. فاتّفق أنّه عشق جارية في بعض الأيّام، فافتتن بها وهام، وتواترت عليه الأسقام من كثرة الحزن وقلّة الأكل والمنام حتّى انتحل جسمه، واعتراه الجنون، ومضى عليه مثل ذلك سنون، وهو يهيم مع الوحوش في البراري والهضاب، لا يقرّ له قرار، ولا يلتفت إلى خطاب إلاّ إذا ذكرت له ليلى زالت عنه الوحشة، وعاد عقله إليه، وذهبت عن قلبه الرعشة.

قال الرجل: ولمّا انتهت من كلامها التفت عليّ، وقال: أيّها الرجل المسافر إلى أين أنت سائر، وإلى أي حلّة تقصد من حلل العشائر، فقلت له: مرادي أسير إلى حيّ بني عامر، أهل المكارم والمفاخر، قال: بالله عليك، متى وصلت إلى تلك المنازل والأعلام، اقرأ ليلى منّي كثير السَّلام، أو اعلمها بحالي، وما شاهدت من أحوالي، وبلغها عنّي هذه الأبيات، وأنشد يقول:

حَلَفْتُ بأنّي لا أخُنْكِ مَوَدَّةً
وإنّي بِكُمْ حتّى المماتِ ضَنينُ
تُخَبِّرُني الأحلامُ أنّي أراكُمُ
فيا لَيْتَ أحلامَ المَنامِ يَقينُ

ثم وثب قائماً على قدميه، وطرح البردة عن منكبيه، وصاح صيحة قويّة، وذهب مع وحوش البريّة، فجعلت أخته تبكي وتلطم خدودها، وتعضّ من شدّة الأسف زنودها، وبكيت أيضاً على صباه، وعلى ما أصابه ودهاه، ثمّ ودّعتها وجدّيت في قطع الهضاب حتى وصلت إلى بني الجريش قبل الغياب، فقصدت إلى مضرب كبير، وقد حدثتني نفسي أنه بيت الأمير، فلمّا دنوت منه وقفت

مفتكراً، وفي هذا الأمر متحيّراً وإذ خرجت عليّ عجوز من ذلك البيت، فقالت: من أنت، ومن أين أتيت؟

فقلت لها : إنّني رجل غريب أتيت هذه القبيلة لأجل ليلى خليلة المجنون العاشق المفتون، وقد حمّلني لها سلاماً وشعراً وكلاماً، فهل لكِ أن تدلّيني عليها، وترشديني إليها؟

فلمّا سمعت كلامي، قالت: أبشر يا أوجه العرب ببلوغ الأرب، ثمّ إنّها غابت وجاءت بجارية بديعة الجمال كأنّها الهلال، مسربلة بثوب من الحرير الأحمر، وفي عنقها عقد من نفيس الجوهر يدهش البصر، وعيناها تذرف بالدموع، وهي تبكي من فؤاد موجوع، فتقدّمت إليّ، وسلّمت عليّ، وقالت لي: أيّها الصديق، قد بلغني أنّك لقيت قيساً بالطريق، فحمّلك كلاماً تقوله لي، فأنا هي ليلى المشومة عليه، والمشتاقة إليه، فبالله عليك، حدّثني بما سمعته منه، وبما نقلت من الشعر عنه، فحدّثتها بحديثه، وما كان من أمره، وأنشدتها ما سمعت من شعره، فصارت تبكي وتلطم على خدودها، وتعضّ من الأسف على زنودها؛ هذا والعجوز تتلطّف بخاطرها، وتضمّها إلى صدرها، وتقبّلها في وجهها ونحرها، وقد احتارت في أمرها، ثم التفتت إليّ بعد حين وتنهّدت من قلب حزين، وقالت: يا صاحب الهمّة العليّة، وكاشف الغمّة والبليّة، إذا اجتمعت به مرّة أخرى في البريّة، اهدِهِ منّي جزيل التحيّة، وأنشده هذه الأبيات:

لـقَـدِ آخْـتَـفَـى رَسْـمِـي وَقَـلَّ تَـبَـصُّـرِي
وَضـاقَـتْ بِـوَجْـهِـي واسِـعاتُ الـمَـسَـالِـكِ
وإنَّ فــوادِي مُــسْــتَــهـــامٌ بِــحُــبِّــكُــمْ
وَلَــسْــتُ لَــكُــمْ مـا دُمْـتُ حَـيًّـا بِـتـارِكِ

قال: ثم إنّها أضافتني وترحّبت بي وأكرمتني، فأقمت عندها ثلاثة أيّام

في عزازة وإكرام، ثم استأذنت وانصرفت من حيث أتيت، وقد تعجّبت ممّا سمعت ورأيت.

قال الراوي: وكانت ليلى لا تستطعم بطعام، ولا تلتذّ في منام، بل تقضي ليلها الطويل بالبكاء والعويل، وتخاطب نفسها بالملامة، وتعضّ على يديها أسفاً وندامة حتّى زال نشاطها وحال، وتمكّن منها المرض والبلبال، وفي كل يوم تزداد عليها الآلام حتى انقطع صوتها عن الكلام، وشربت كأس الحمام، فكفنها أهلها، وواروها التراب، وأكثروا عليها الانتحاب، ومزّقوا ما عليهم من الثياب.

قال الراوي: فبينما كان قيس يطوف من مكان إلى مكان، وهو كثير الهموم والأحزان إذ مرّ به فارسان، فنعيا إليه ليلى، وقالا: قد حكم الله عليها بالموت، وهو كأس ليس لأحد منه فوت لم يسلم منه ملك شديد ولا جبّار عنيد، فعزّ نفسك الآن وتب إلى العزيز الرحمن، واستقبل الأحكام بالرضى، واستسلم لموارد القضاء، وقوابل وعوارض المحن والضير بما قال كعب بن زهير:

كُـلُّ ٱبْـنِ أُنْـثـى وإنْ طـالَـتْ سَـلامَـتُـهُ
يَـوْمـاً عـلـى آلَـةٍ حَـدْبـاءَ مَـحْـمُـولُ

قال: فلمّا سمع منها ذلك الخطاب أظهر الاكتئاب، واستعظم المصاب، وأخذته الرّعدة والاضطراب، وغاب عن الصواب، وعلا زفيره وشهيقه حتّى رقّ له عدوّه وصديقه، وأنشد يقول:

أيـا نـاعِـيَـيْ لـيْـلـى بِـجَـانِـبِ هَـضْـبـةٍ
أمَـا كَـانَ يَـنْـعَـاهَـا إلَـيَّ سِـوَاكُـمـا
ويـا نَـاعِـيَـيْ لـيـلـى بِـجَـانِـبِ هَـضْـبَـةٍ
فـمِـنْ بَـعْـدِ لَـيْـلَـى لا أُمِـرَّتْ قِـوَاكُـمَـا

فَلا عِشْتُما إلّا حَلِيفَيْ مصِيبَةٍ
ولا متُّمَا حَتَّى يَطُولَ بلاَكُمَا

أظنُّكُمَا لا تَعْلَمَانِ مُصِيبَتِي
لَقَدْ حَلَّ بَيْنُ الْوَصْلِ فِيمَا أرَاكُمَا

ثمّ مضى حتى دخل الحيّ، وهو في غمّ شديد، وحزن ما عليه من مزيد بعد أن كان لا يمرّ عنه إلاّ من بعيد، فأتى أهل بيتها فعزّاهم وعزّوه، وقال: أنبئوني على قبرها، فأنبأوه، فلمّا رآه عظم مصابه وبلاه، وألقى نفسه عليه من شدّة عشقه وجواه، وضمّه إلى صدره، وقد حار في أمره وأنشد يقول:

أيَا قَبْرَ لَيْلَى لو شَهِدْنَاكَ أعْوَلَتْ
عَلَيْكَ نِساءٌ مَنْ فَصيحٍ ومِنْ عَجَمْ

ويا قبرَ ليلى أكْرِمَنَّ مَحَلَّهَا
يَكُنْ لكَ ما عِشْنَا عَلَيْنَا بها نِعَمْ

ويا قبرَ ليلى إنَّ لَيْلَى غريبَةٌ
بِأرْضِكَ لا خالٌ لَدَيْها ولا ابْنُ عَمْ

قال: وكان يأوي إلى قبر ليلى بالليل، ويدور بالنّهار وهو يرثيها بالأشعار حتى ضعفت قوّته، واشتدّت بليّته.

قال الرّاوي: ثم إنّ رجلاً هلاليًا أحبَ لقاه والتمتّع برؤياه، قال الهلالي: فخرجت أطلبه في البراري والقفار، إلى أن لقيته آخر النهار جالساً على بعض الأحجار، سابحاً في بحر الأفكار، فسلّمت عليه سلام الحبيب، وجلست منه بمكان قريب، فابتهج بي واستأنس بقربي، وردّ عليّ السَّلام بأفصح كلام، فقلت له: يا صاحب الوجه المليح، والكلام الفصيح ما أحسن قول قيس بن ذريح حيث يقول:

فَــــواكَــــبِــــدِي وعــــادانِــــي رِداعِــــي
وَكــانَ فِــراقُ لُــبْــنَــى كــالــخِــداعِ

فــأصْــبَــحْــتُ الــغَــداةَ ألــومُ نَــفْــســي
عَــلــى شَــيءٍ ولــيــسَ بــمُــسْــتَــطــاعِ

كَــمَــغْــبُــونٍ يــعــضُّ عــلــى يَــدَيْــهِ
تَــبَــيَّــنَ غِــبْــنُــهُ بَــعْــدَ الــوَداعِ

فتنهّد من فؤاد متبول، وقال: أنا أشعر منه حيث أقول:

إذا نَــظَــرَتْ نَــحــوي تَــكَــلَّــمَ طَــرْفُــهــا
وَجَــاوَبَــهَــا طَــرْفــي وَنَــحْــنُ سُــكــوتُ

وَلَــوْ خُــلِــطَ الــسَّــمُّ الــمُــذابُ بِــرِيــقِــهــا
وأُســقِــيــتُ مِــنْــهُ نَــهْــلَــةً لَــبَــرِيــتُ...

قال الأعرابي: فلمّا أتمّ هذه الأبيات ظهرت له ظبية في بعض الفلوات، فتعلّق قلبه بها، ووثب مسرعاً يطلبها، والتفت إليّ وقال: أيّها الرفيق والحبيب الصديق، فما أراك بعد هذا اليوم تراني، فقد كفاني ما دهاني. قال الهلالي: ثم رجعت إلى الحيّ، وقد اكتوى قلبي عليه بكيّ، فأنشدتهم ما سمعته من شعره، وأخبرتهم بخبره، وما كان من أمره. فلمّا كان من الغد بكرت إليه وفتّشت عليه، فلم أقف له على أثر، فأخذني القلق والضجر، فانصرفت إلى أهله، وأعلمتهم بالخبر، فقام إخوته ومن يلوذ به من أهله وأقاربه، وطلبناه في القفار والسهول والأوعار طول ذلك النهار، إلى أن هبطنا إلى واد كثير الحجار، وإذ به ملقىً ميتاً بين حجرين، وقد خطّ بإصبعه عند رأسه هذين البيتين:

تَـوَسَّـدَ أحْـجَـارَ الـمَـهَـامِـهِ وَالـقَـفْـرِ
وَمَـاتَ جَـرِيـحَ الْـقَـلْـبِ مُـنْـدَمِـلَ الـصَّـدْرِ
فَـيَـا لَـيْـتَ هَـذَا الْـحِـبَّ يَـعْـشَـقُ مَـرَّةً
فَـيَـعْـلَـمَ مَـا يَـلْـقَـى الـمُـحِـبُّ مِـنَ الـهَـجْـرِ

فعلَتْ أصواتنا بالبكاء والنحيب، وحملناه إلى الحيّ فبكاه الغريب والقريب، وكلّ صاحب وصديق، وتأسّف أبو ليلى عليه، وندم على عدم زواجه بليلى غاية الندم، وقال: والله لقد قابلته بالاستخفاف، وعاملته بغير الحقّ والإنصاف، ثمّ تقدّم إليه وضمّه إلى صدره، وبكى عليه. وبعد ذلك غسلوه وكفّنوه، وإلى جانب ليلى دفنوه، وكان ذلك سنة الثمانين من الهجرة المحمّدية الموافقة إلى سبعمئة مسيحيّة.

* * *

ومن أجمل أشعاره

المؤنسة

تذكَّرْتُ لَيْلَى والسِّنينَ الْخوَالِيا
وَأيَّامَ لَا نَخْشَى على اللَّهْوِ نَاهِيَا

وَيَوْمٍ كَظِلِّ الرُّمْحِ قَصَّرْتُ ظِلَّهُ
بِلَيْلَى فَلَهَّانِي وما كُنْتُ لَاهِيَا
بِتَمْدِينَ لَاحَتْ نَارُ لَيْلَى وَصُحْبَتِي
بِذَاتِ الغَضَى تُزْجِي المَطِيَّ النَّوَاجِيَا[1]
فَقَالَ بَصيرُ الْقَوْمِ: أَلْمَحْتُ كَوْكَباً
بَدَا فِي سَوَادِ اللَّيْلِ فَرْداً يَمَانِيَا

فَقُلْتُ لَهُ: بَلْ نارُ لَيْلَى تَوَقَّدَتْ
بِعَلْيَا تَسَامَى ضَوْؤُهَا فَبَدَا لِيَا[2]
فَلَيْتَ رِكابَ الْقَوْمِ لَمْ تَقْطَعِ الْغَضَى
وَلَيْتَ الْغَضَى مَاشَى الرِّكَابَ لَيَالِيَا

فَيَا لَيْلَ كَمْ مِنْ حَاجَةٍ لِي مُهِمَّةٍ
إذا جِئْتُكُمْ بِاللَّيْلِ لَمْ أدْرِ مَاهِيَا

(1) تمدين وذات الغضى: اسمان لموضعين - المطي النواجيا: ج ناجية وهي الناقة السريعة تنجو بمن ركبها.

(2) عليا: اسم موضع.

خـلِـيـلَـيَّ إنْ لَـم تـبْـكِـيَـانـيَ ألْـتَـمِـسْ
خَـلِـيـلاً إذَا أنْـزِفْـتُ دَمْـعِـي بَـكَـى لِـيَـا

فـمَـا أُشْـرِفُ الأَيْـفَـاعَ إلَّا صـبَـابَـةً
وَلَا أُنْـشِـدُ الأَشْـعَـارَ إلَّا تَـدَاوِيَـا[1]
وَقَـدْ يَـجْـمَـعُ اللهُ الـشَّـتِـيـتَـيْـنِ بَـعْـدَمَـا
يَـظُـنَّـانِ كُـلَّ الـظَّـنِّ أنَ لَا تـلَاقِـيَـا[2]
لـحَـى اللهُ أقْـوَامـاً يَـقُـولُـونَ إنَّـنَـا
وَجَـدْنَـا طَـوَالَ الـدَّهْـرِ لِـلْـحُـبِّ شَـافِـيَـا[3]
وَعَـهْـدِي بِـلَـيْـلَـى وَهْـيَ ذاتُ مُـؤَصَّـدٍ
تَـرُدُّ عَـلَـيْـنَـا بِـالْـعَـشِـيِّ الـمَـوَاشِـيَـا

فَـشَـبَّ بـنُـو لَـيْـلَـى وَشَـبَّ بَـنُـو ابْـنِـهَـا
وَأعْـلَاقُ لَـيْـلَـى فِـي فُـؤَادِي كـمـا هِـيَـا
إذَا مَـا جَـلَـسْـنَـا مَـجْـلِـسـاً نَـسْـتَـلِـذُّهُ
تَـوَاشَـوْا بِـنَـا حَـتَّـى أمَـلَّ مَـكَـانِـيَـا

سَـقَـى اللهُ جَـارَاتٍ لِـلَـيْـلَـى تَـبَـاعَـدَتْ
بِـهِـنَّ الـنَّـوَى حَـيْـثُ احْـتَـلَـلْـنَ الـمطَـالِـيَـا
ولَـمْ يُـنْـسِـنِـي لَـيْـلَـى افْـتِـقَـارٌ وَلَا غِـنًـى
وَلَا تَـوْبَـةٌ حَـتَّـى احْـتَـضَـنْـتُ الـسَّـوَارِيَـا

(1) الأيفاع: ج يفع ويفاع، كل ما ارتفع عن الأرض.

(2) الشتيتان: اللذان ابتعد كل منهما عن صاحبه وتفرّق بهما الشمل.

(3) لحى الله: قبّح ولعن. طوال الدهر: طول الدهر.

وَلَا نِسْوَةٌ صَبَّغْنَ كَبْدَاءَ جَلْعَداً
لَتُشْبِهَ لَيْلَى ثُمَّ عَرَّضْنَهَا لِيَا

خَلِيلَيَّ لَا وَاللهِ لَا أَمْلِكُ الَّذِي
قَضَى اللهُ فِي لَيْلَى ولا ما قَضَى لِيَا

قَضَاهَا لِغَيْرِي وَابْتَلَانِي بِحُبِّهَا
فَهَلَّا بِشَيْءٍ غَيْرِ لَيْلَى ابْتَلَانِيَا

وَخَبَّرْتُمَانِي أَنَّ تَيْمَاءَ مَنْزِلٌ
لِلَيْلَى إِذَا مَا الصَّيْفُ أَلْقَى المَرَاسِيَا[1]

فَهَذِي شُهُورُ الصَّيْفِ عَنَّا قَدِ انْقَضَتْ
فَمَا لِلنَّوَى تَرْمِي بِلَيْلَى المَرَامِيَا[2]

فَلَوْ أَنَّ وَاشٍ بِالْيَمَامَةِ دَارُهُ
وَدَارِي بِأَعْلَى حَضْرَمَوتَ اهْتَدَى لِيَا

وَمَاذَا لَهُمْ لَا أَحْسَنَ اللهُ حَالَهُمْ
مِنَ الحَظِّ فِي تَصْرِيمِ لَيْلَى حَبَالِيَا

وَقَدْ كُنْتُ أَعْلُو حُبَّ لَيْلَى فَلَمْ يَزَلْ
بِيَ النَّقْضُ وَالإِبْرَامُ حَتَّى عَلَانِيَا

فَيَا رَبِّ سَوِّ الحُبَّ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
يَكُونُ كَفَافاً لَا عَلَيَّ وَلَا لِيَا

فَمَا طَلَعَ النَّجْمُ الَّذِي يُهْتَدَى بِهِ
وَلَا الصُّبْحُ إِلَّا هَيَّجَا ذِكْرَهَا لِيَا

---

(1) تيماء: اسم موضع.

(2) النوى: البعاد.

وَلَا سِرْتُ مِيلاً مِنْ دِمَشْقَ وَلَا بَدَا
سُهَيْلٌ لِأَهْلِ الشَّامِ إِلَّا بَدا لِيَا [1]

وَلَا سُمِّيَتْ عِنْدِي لَهَا مِنْ سَمِيَّةٍ
مِنَ النَّاسِ إِلَّا بَلَّ دَمْعي رِدَائِيَا
وَلَا هَبَّتِ الرِّيحُ الجَنُوبُ لِأَرْضِهَا
مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا بِتُّ لِلرِّيحِ حَانِيَا
فَإِنْ تَمْنَعُوا لَيْلَى وَتَحْمُوا بِلَادَها
عَلَيَّ فَلَنْ تَحْمُوا عَلَيَّ الْقَوَافِيَا[2]
فَأَشْهَدُ عِنْدَ اللهِ أَنِّي أُحِبُّهَا
فَهَذَا لَهَا عِنْدِي فَمَا عِنْدَهَا لِيَا
قَضَى اللهُ بِالْمَعْرُوفِ مِنْهَا لِغَيْرِنَا
وَبِالشَّوْقِ مِنِّي وَالْغَرَامِ قَضَى لِيَا

وإِنَّ الَّذِي أَمَّلْتُ يَا أُمَّ مَالِكٍ
أَشَابَ فُوَيْدِي وَاسْتَهَامَ فُؤَادِيَا[3]
أَعُدُّ اللَّيَالِي لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ
وقَدْ عِشْتُ دَهْراً لَا أَعُدُّ اللَّيَالِيَا

وأَخْرُجُ مَنْ بَيْنِ الْبُيُوتِ لَعَلَّنِي
أُحَدِّثُ عَنْكِ النَّفْسَ بِاللَّيْلِ خَالِيَا

---

(1) سهيل: نجم بهيّ، طلوعه على بلاد العرب في أواخر القيظ.

(2) تحموا بلادها عليّ: تمنعوا بلادها عليّ. فلن تحموا عليّ القوافيا: لن تستطيعوا منعي من التغنّي بها في شعري.

(3) أم مالك: كنية ليلى. الفويد: تصغير الفود وهو جانب شعر الرأس.

أرَانِـي إذَا صَـلَّـيْـتُ يَـمَّـمْـتُ نَـحْـوَهَـا
بِـوَجْـهِـي وإنْ كَـانَ الـمُـصَـلَّـى وَرَائِـيَـا
وَمَـا بِـيَ إشْـرَاكٌ وَلَـكِـنَّ حُـبَّـهَـا
وَعُـظْـمَ الـجَـوَى أعْـيَـا الـطَّـبِـيـبَ الـمُـدَاوِيَـا[1]
أحِـبُّ مِـن الأسْـمَـاءِ مَـا وَافَـقَ اسْـمَـهَـا
أوَ أشْـبَـهَـهُ أوْ كَـانَ مِـنْـهُ مُـدَانِـيَـا[2]
خَـلِـيـلَـيَّ لَـيْـلَـى أكْـبَـرُ الْـحَـاجِ وَالْـمُـنَـى
فَـمَـنْ لِـي بِـلَـيْـلَـى أو فَـمَـنْ ذا لَـهـا بِـيَـا[3]
لَـعَـمْـري لـقـد أبْـكَـيْـتِـنِـي يَـا حَـمَـامَـةَ الْـ
ـعَـقِـيـقِ وَأبْـكَـيْـتِ الْـعُـيُـونَ الْـبَـوَاكِـيَـا[4]
خَـلِـيـلَـيَّ مَـا أرْجُـو مِـنَ الْـعَـيْـشِ بَـعْـدَمَـا
أرَى حَـاجَـتِـي تُـشْـرَى وَلَا تُـشْـتَـرى لِـيَـا[5]
وَتُـجْـرِمُ لَـيْـلَـى ثُـمَّ تَـزْعُـمُ أنَّـنِـي
سَـلَـوْتُ وَلَا يَـخْـفَـى عـلـى الـنَّـاسِ مَـا بِـيَـا
فَـلَـمْ أرَ مِـثْـلَـيْـنَـا خـلِـيـلَـيْ صَـبَـابَـةٍ
أشَـدَّ عَـلَـى رَغْـمِ الأعَـادِي تـصَـافِـيَـا
خـلِـيـلَانِ لَا نَـرْجُـو الـلِّـقَـاءَ وَلَا نَـرَى
خَـلِـيـلَـيْـنِ إلَّا يَـرْجُـوَان تَـلَاقِـيَـا

---

(1) عظم الجوى: شدّة الوجد والهيام.

(2) مدانياً: متقارباً ومشابهاً.

(3) الحاج: ج حاجة أي المأرب والغاية.

(4) العقيق: اسم موضع.

(5) تشري: تباع. حاجتي: أي مأربي في الحياة وهو ليلى.

وَإِنّي لأَسْتَحْيِيكِ أنْ تَعرِضَ المُنى
بوَصْلِكِ أوْ أنْ تَعْرِضي في المُنَى لِيَا
يَقُولُ أُناسٌ عَلَّ مَجْنُونَ عَامِرٍ
يَرُومُ سُلُوًّا قُلْتُ أَنَّى لِمَا بِيَا
بِيَ اليَأْسُ أوْ دَاءُ الهُيَامِ أصَابَني
فَإِيَّاكَ عَنِّي لَا يَكُنْ بِك مَا بِيَا
إذا مَا اسْتَطَالَ الدَّهْرُ يَا أُمَّ مَالِكٍ
فَشَأْنُ المَنَايَا القَاضِيَاتِ وَشَانِيَا[1]
إذا اكْتَحَلَتْ عَيْنِي بِعَيْنِكِ لمْ تزَلْ
بِخَيْرٍ وَجَلَّتْ غَمْرَةً عَنْ فُؤادِيَا[2]

فَأنتِ الَّتِي إنْ شِئتِ أشْقَيْتِ عِيشَتِي
وَأنتِ الَّتِي إنْ شِئتِ أنْعَمْتِ بَالِيَا

وَأنتِ الَّتِي مَا مِنْ صَدِيقٍ وَلَا عِدى
يَرَى نِضْوَ مَا أبْقَيتِ إلّا رَثَى لِيَا[3]
أمَضْرُوبَةٌ لَيْلَى عَلَى أنْ أزُورَهَا
وَمُتَّخَذٌ ذَنْباً لَهَا أنْ تَرَانِيَا

إذَا سِرْتُ فِي الأرْضِ الفَضَاءِ رَأيْتُني
أُصَانِعُ رَحْلِي أنْ يَمِيلَ حِيَالِيَا[4]

---

(1) وشانيا: أي وشأني.

(2) جلَت غمرة. أزاحت غماً وأسى.

(3) النضو: الإنسان المهزول أو الثوب البالي الممزّق. والمقصود هنا نفسه المحطمة الممزّقة.

(4) الرحل: الركاب. أصانع رحلي: أجعل السائرين معي يتجهون إلى حي ليلى.

يَـمِـيـنـاً إذا كَـانَـتْ يَـمِـيـنـاً وَإنْ تَـكُـنْ
شِـمَـالاً يُـنَـازِعْـنِـي الـهَـوَى عَـنْ شِـمَـالِـيَـا

وَإنِّـي لأَسْـتَـغْـشِـي وَمـا بِـيَ نَـعْـسَـةٌ
لَـعَـلَّ خيـالاً مِـنْـكِ يَـلْـقَـى خَـيـالِـيـا[1]
هِـيَ الـسِّـحْـرُ إلَّا أنَّ لـلـسِّـحْـرِ رُقْـيَـةً
وَإنِّـيَ لَا أُلْـفِـي لَـهـا الـدَّهْـرَ رَاقِـيَـا[2]
إذا نَـحْـنُ أدْلَـجْـنَـا وَأنْـتِ أمَـامَـنَـا
كَـفَـى لِـمَـطَـايَـانَـا بِـذِكْـرَاك هَـادِيَـا[3]
ذَكَـتْ نـارُ شَـوْقِـي في فُـؤَادِي فـأصْـبَـحَـتْ
لَـهـا وَهَـجٌ مُـسْـتَـضْـرَمٌ فـي فُـؤادِيَـا[4]

ألَا أيُّـهـا الـرَّكْـبُ الْـيَـمـانُـونَ عَـرِّجُـوا
عَـلَـيْـنـا فـقـدْ أمْـسَـى هَـوَانـا يَـمَـانِـيَـا[5]
أُسَـائِـلُـكُـمْ هَـلْ سَـالَ نَـعْـمَـانُ بَـعْـدَنَـا
وَحُـبَّ عـلَـيـنـا بَـطْـنُ «نَـعْـمَـانَ» وَادِيَـا[6]

ألَا يَـا حَـمَـامَـيْ بَـطْـنِ نَـعْـمَـانَ هِـجْـتُـمـا
عَـلَـيَّ الـهَـوَى لَـمَّـا تَـغَـنَّـيْـتُـمَـا لِـيَـا

(1) أستغشي: أستحضر النوم. نعسة: نعاس أي رغبة شديدة في النوم.

(2) لا ألفي لها الدهر راقيا: أي لا أجد لنفسي شفاء من حبّها.

(3) أدلجنا: سرنا في الليل المظلم.

(4) ذكت: اشتعلت.

(5) الركب اليمانون: المتجهون وجهة اليمن أي الجنوب.

(6) نعمان: اسم موضع.

وَأَبْكَيْتُمَانِي وَسْطَ صَحْبِي وَلَمْ أَكُنْ
أُبَالِي دُمُوعَ الْعَيْنِ لَوْ كُنْتُ خَالِيَا
وَيَا أَيُّهَا الْقُمْرِيَّتَانِ تَجَاوَبَا
بِلَحْنَيْكُمَا ثُمَّ اسْجَعَا عَلِّلَانِيَا[1]
فَإِنْ أَنْتُمَا اسْتَطْرَبْتُمَا أَوْ أَرَدْتُمَا
لَحَاقاً بِأَطْلَالِ الْغَضَى فَاتْبَعَانِيَا[2]
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي مَا لِلَيْلَى وَمَا لِيَا
وَمَا لِلصِّبَا مِنْ بَعْدِ شَيْبٍ عَلَانِيَا
أَلَا أَيُّهَا الْوَاشِي بِلَيْلَى أَلَا تَرَى
إِلَى مَنْ تَشِيهَا أَوْ بِمَنْ جِئْتَ وَاشِيَا
لَئِنْ ظَعَنَ الأَحْبَابُ يَا أُمَّ مَالِكٍ
فَمَا ظَعَنَ الْحُبُّ الَّذِي فِي فُؤَادِيَا[3]
معذّبتي! لولاكِ ما كنتُ هائماً
أبيتُ سَخينَ العينِ حرّانَ باكيا[4]
وقائِلَةٍ: وارَحْمَتا لِشَبابِهِ
فَقُلْتُ: أَجَلْ وارَحْمَتا لِشَبابِيا
وَدِدْتُ عَلى طِيبِ الْحَياةِ لَوَ انَّهُ
يُزادُ لِلَيْلَى عُمْرُها مِنْ حَياتِيا

(1) القمريتان: الحمامتان المغرّدتان. اسجعا: غرّدا. علّلانيا: اشفياني من وجدي وحبي المبرّح.

(2) أطلال الغضى: الآثار المتبقية من المكان الذي كان يضمّه ويجمعه مع ليلى والذي شهد ذكرياتهما معاً.

(3) ظعن: رحل.

(4) سخين العين: عينه تبكي بشدّة وحرقة. حرّان: لهفان.

ألا يـا حَـمـامـاتِ الـعِـراقِ أعِـنَّـنـي
عَـلـى شَـجَـنِـي وَابْـكِـيـنَ مِـثْـلَ بُـكـائِـيـا
يَـقُـولُـونَ لَـيْـلَـى بِـالـعِـراقِ مَـريـضَـةٌ
فَـيـا لَـيْـتَـنـي كُـنْـتُ الـطَّـبِـيـبَ الـمُـداوِيـا
تَـمُـرُّ الـلَّـيـالِـي والـشُّـهُـورُ، وَلا أرى
غَـرامِـي لَـهـا يَـزْدَادُ إلّا تَـمـادِيـا[1]
فَـيَـا ربِّ إذْ صَـيَّـرْتَ لَـيْـلَـى هِـيَ الـمُـنـى
فَـزِنِّـي بِـعَـيْـنَـيْـهَـا كـمَـا زِنْـتَـهَـا لِـيَـا[2]
وإلّا فَـبـغِّـضْـهَـا إلَـيَّ وَأهْـلَـهَـا
فَـإنِّـي بـلَـيْـلَـى قَـدْ لَـقِـيـتُ الـدَّوَاهِـيَـا[3]
عَـلَـى مِـثْـل لَـيْـلَـى يَـقْـتُـلُ الـمَـرْءُ نَـفْـسَـهُ
وَإنْ كُـنْـتُ مِـنْ لـيْـلَـى عَـلَـى الْـيَـأْسِ طـاوِيَـا[4]

* * *

لَقَدْ فُضِّلَتْ لَيْلى عَلى النّاسِ مِثْلَما
عَـلـى ألْـفِ شَـهْـرٍ فُـضِّـلَـت لَـيْـلَـةُ الـقَـدْرِ

* * *

وكُـنْـتَ وَعَـدْتَـنـي يـا قَـلْـبُ أنّـي
إذا مـا تُـبْـتُ عَـنْ لَـيْـلَـى تَـتُـوبُ

---

(1) تماديا: بلوغاً إلى مداه وإمعاناً في الأمر.

(2) فزنّي بعينيها: جمّلتني بعينيها.

(3) الدواهي: ج الداهية وهي المصيبة المهلكة.

(4) طاوياً أي مخفياً أمري وحقيقة ما أكابده في نفسي.

وهـا أنـا تـائِـبٌ عَـنْ حُـبُّ لَـيْـلـى
فَـمـا لَـكَ كُـلَّـمـا ذُكِـرَتْ تَـذوبُ؟

* * *

أومـيـضُ بَـرْقٍ فـي الأبَـيْـرِقِ لاحـا
أمْ فـي رُبَـى نَـجْـدٍ أرى مِـصـبـاحـا
أمْ تِـلْـكَ لَـيْـلَـى الـعـامِـريَّـة أسْـفَـرَتْ
لَـيْـلاً، فَـصَـيَّـرَتِ الـمـسـاءَ صَـبـاحـا؟

* * *

بِـاللهِ يـا ظَـبـيـاتِ الـقـاعِ قُـلْـنَ لَـنـا
لَـيْـلايَ مِـنْـكُـنَّ أمْ لَـيْـلَـى مِـنَ الـبَـشَـرِ؟

* * *

أقـولُ لِـظَـبْـيٍ مَـرَّ بـي وَهْـوَ شـارِدٌ
أأَنْـتَ أخـو لَـيْـلَـى؟ فـقـالَ: يُـقـالُ

* * *

أُقَـلِّـبُ طَـرْفـي فـي الـسَّـمـاءِ لَـعَـلَّـهُ
يُـوافِـقُ طـرْفـي طَـرْفَـهـا حِـيـنَ تَـنْـظُـرُ

* * *

وَلَـوْ تَـلْـتَـقِـي أصْـداؤنـا بَـعْـدَ مَـوْتِـنـا
وَمِـنْ دونِ رَمْـسَـيْـنـا مِـنَ الأرْضِ سَـبْـسَـبُ
لَـظَـلَّ صَـدى صَـوْتـي وإنْ كُـنْـتُ رِمَّـة
لِـصَـوتِ صَـدى لَـيْـلَـى يَـهَـشُّ وَيَـطْـربُ

* * *

تَـداوَيْـتُ عَـنْ لَـيْـلَـى بِـلَـيْـلَـى وحُـبِّـهـا
كَـمـا يَـتَـداوى شـاربُ الـخَـمْـرِ بـالـخَـمْـرِ

* * *

ذَكَـرْتُـكِ والـحـجـيـجُ لَـهـمْ ضَـجـيـجُ
بِـمَـكَّـةَ والـقُـلـوبُ لَـهـا وَجـيـبُ
فَـقُـلْـتُ، وَنَـحْـنُ فـي بَـلَـدٍ حَـرامٍ
بِـهِ للهِ أَخْـلَـصَـتِ الـقُـلـوبُ
أتـوبُ إلـيـكَ يـا رَبّـاهُ عَـمّـا
جَـنَـيْـتُ، فَـقَـدْ تـكـاثَـرَتِ الـذُّنـوبُ
ولـكـنْ عَـنْ هَـوى لَـيْـلَـى وحُـبِّـي
زيـارتَـهـا فَـإنِّـي لا أتـوبُ

* * *

جَرى السَّيْلُ فاستبكانِيَ السَّيْلُ إذ جرى
وَفَـاضَـتْ لَـهُ مِـنْ مُـقْـلَـتَـيَّ غُـروبُ[1]
وَمـا ذاكَ إلّا حِـيـنَ أَيْـقَـنْـتُ أَنَّـهُ
يـكـونُ بِـوادٍ أنـتِ مِـنْـهُ قَـرِيـبُ
يـكـون أُجـاجـاً دونـكـم فـإذا انـتـهـى
إلـيـكـم تـلـقَّـى طـيـبَـكـم فـيـطـيـبُ[2]

---

(1) غروب: دموع.

(2) ماء أجاج: شديد الملوحة.

فيا ساكِنِي أَكْنَافَ نَخْلَةَ كُلُّكُمْ
إلى القَلْبِ مِنْ أَجْلِ الحبيبِ حبيبُ

* * *

كَأنَّ فُؤادي في مَخالِبِ طائِرٍ
إذا ذُكِرَتْ لَيْلَى يَشُدُّ بِها قَبْضا
كَأنَّ فِجاجَ الأرْضِ حَلْقَةُ خاتمٍ
عَلَيَّ، فَما تَزْدادُ طولاً ولا عَرْضا

* * *

سَرى لَيْلاً خيالٌ مِنْ سُلَيْمى
فـأرَّقَـنـي وأصْـحـابـي هُـجُـودُ
فَـبِــتُّ أُدِيــرُ أمْــرِي كُـلَّ حــالٍ
وأذْكُـرُ أهْـلَـهـا وهُـمُ بـعـيـدُ
ورُبَّ أسيـلَـةِ الـخَـدَّيْـنِ بَـكْـرٍ
مُـنَـعَّـمَـةٍ لـهـا فَـرْعٌ وجـيـدُ
لَـهَـوتُ بِـهـا زمـانـاً فِـي شَـبـابـي
وزارَتْـهـا الـنَّـجـائِـبُ والـقـصـيـدُ

المرقّش الأكبر



المرقش الأكبر

(...- نحو 75ق.هـ/ نحو 550م)

عوف (أو عمرو) بن سعد بن مالك بن ضبيعة من بني بكر بن وائل. شاعر جاهلي، من المتيّمين الشُّجعان. عشق ابنة عمٍ له اسمها «أسماء» وقال فيها شعراً كثيراً. وكان يُحْسِن الكتابة. وشعره من الطّبقة الأولى، ضاع أكثره. وُلد باليمن، ونشأ بالعراق. واتّصل مدة بالحارث بن أبي شمر الغساني ونادمه ومدحه. واتّخذه الحارث كاتباً له. تزوَّجت عشيقته أسماء برجل من بني مراد، فمرض المرقّش زمناً، ثمّ قصدها فمات في حيِّها. وفي المؤرخين من يُسمّيه عمرو بن سعد وربيعة بن سعد. وهو عمّ المرقش الأصغر، وهذا عم طرفة بن العبد[1]

(1) خير الدين الزركلي، الأعلام 5/ 95.

أخباره
كما جاءت في كتاب
«الأغاني»

قال أبو عمرو، ووافقه المفضّل الضبي[1]:

وكان من خبر المرقّش الأكبر أنه عشق ابنه عمه أسماءَ بنتَ عوف بن مالك، وهو البُرَك عشِقها وهو غلام فخطبها إلى أبيها، فقال: لا أزوّجك حتى تُعرفَ بالبأس - وهذا قبل أن تخرج ربيعة من أرض اليمن- وكان يَعِده فيها المواعيد.

ثمّ انطلق مرقّش إلى ملك من الملوك، فكان عنده زماناً ومدحه فأجازه. وأصاب عوفاً زمانٌ شديد؛ فأتاه رجل من مُراد أحدُ بني غُطَيف، فأرغبه في المال، فزوّجه أسماء على مائةٍ من الإبل، ثم تنحّى عن بني سعد بن مالك.

ورجع مرقش، فقال إخوته: لا تُخْبروه إلاّ أنها ماتت؛ فذبحوا كبشاً وأكلوا لحمه ودفنوا عظامه، ولفُّوها في مِلْحَفة، ثم قَبروها. فلما قدِم مرقّش عليهم، أخبروه أنها ماتت، وأتَوْا به موضع القبر، فنظر إليه وصار بعد ذلك يعتاده ويزوره. فبينا هو ذات يوم مضطجع وقد تغطّى بثوبه، وابنا أخيه يلعبان بكعبين لهما، إذ اختصما في كعب، فقال أحدُهما: هذا كعبي أعطانيه أبي من الكبش الذي دفنوه وقالوا إذا جاء مرقّش أخبرناه أنه قبرُ أسماء.

فكشفَ مرقّشٌ عن رأسه ودعا الغلام - وكان قد ضنىَ ضناً شديداً- فسأله عن الحديث، فأخبره به وبتزويج المراديّ أسماء؛ فدعا مرقّش وليدةً له ولها زوج من غُفَيلة[2] كان عَسيفاً[3] لمرقّش، فأمرها بأن تدعو له زوجها فدعته،

(1) الأغاني: 6/ 138-143.

(2) غفيلة: حي من ولد عمرو بن قاصد ولهم عدد بالجزيرة من بني تغلب.

(3) العسيف: الأجير.

وكانت له رواحلُ، فأمره بإحضارها ليطلب المراديَّ [عليها] فأحضره إياها فركبها ومضى في طلبه، فمرض في الطريق حتى ما يُحمَل إلا معروضاً. وإنّهما نزلا كهفاً بأسفل نجْران[1] وهي أرض مراد، ومع الغُفَليّ امرأتُه وليدةُ مرقِّش، فسمع مرقِّش زوج الوليدة يقول لها: اتركيه فقد هلَك سقماً وهلكنا معه ضُرًّا وجُوعاً. فجعلت الوليدةُ تبكي من ذلك؛ فقال لها زوجها: أطيعيني، وإلا فإني تاركُك وذاهب.

قال: وكان مرقِّش يكتب، وكان أبوه دفعه وأخاه حَرْمَلَة - وكانا أحبّ ولده إليه - إلى نَصرانيّ من أهل الحيرة فعلّمهما الخطَّ. فلما سمع مرقِّش قول الغُفَليّ للوليدة، كتب مرقِّش على مُؤَخَّرة الرحل هذه الأبيات:

يـا صـاحـبـيّ تَـلَـبّـثـا لا تَـعْـجَـلا
إنّ الـرَّواح رهـيـنُ ألّا تَـفـعَـلا

فَـلَـعَـلَّ لُـبـثَـكُـمـا يُـفـرِّطُ سَـيِّـئـا
أو يَـسـبِـقُ الإسْـراعُ سَـيْـبًـا مُـقْـبِـلا[2]

يـا راكِـبًـا إمّـا عـرضـتَ فـبـلِّـغَـنْ
أنـسَ بـنَ سـعـدٍ إن لَـقـيـتَ وحَـرْمَـلا[3]

لله دَرُّكُـمـا ودَرُّ أبـيـكـمـا
إن أفـلـتَ الـعَـبْـدانِ حـتّـى يُـقـتَـلا

---

(1) نجران: موضع على يومين من الكوفة فيما بينها وبين واسط على الطريق.

(2) الإفراط: التقدّم والعجلة، يقول: إن أبطأتما فعرض لكما شر فلعلّه أن يخطئكما، وإن تقدّمتما فعرض خير بعدكما فلعله لا يصادفكما.

(3) أنس بن سعد وحرملة: هما أخوا مرقِّش.

مَـنْ مُـبْـلِـغُ الأقْـوامِ أنَّ مـرقِّـشًـا
أَضْحى عَلى الأصْحابِ عِبْئًا مُثْقِلا
وَكـأنَّـمـا تَـرِدُ الـسِّـبـاعُ بِـشِـلْـوِه
إذ غـابَ جَـمْـعُ بَـنـي ضُـبَـيْـعـة مـنْـهـلا[1]

قال: فانطلق الغُفَليّ وامرأتُه حتى رجعا إلى أهلهما، فقالا: مات المرقِّش. ونظر حرملةُ إلى الرَّحْل، وجعل يُقلّبه فقرأ هذه الأبيات، فدعاهما وخوّفهما وأمرهما بأن يصدقاه ففعلا، فقتلهما، وقد كانا وصفا له الموضع.

فركب في طلب المرقِّش حتى أتى المكان، فسأل عن خبره، فَعرف أنّ مرقِّشاً كان في الكهف، ولم يزل فيه حتى إذا هو بغنم تنزو على الغار الذي هو فيه وأقبل راعيها إليها. فلما بُصر به قال له: من أنت وما شأنُك؟

فقال له مرقِّش: أنا رجل من مُراد: وقال للراعي: من أنت؟

قال: راعي فلان، وإذا هو راعي زوج أسماء. فقال له مرقِّش: أتستطيع أن تكلّم أسماء امرأة صاحبك؟

قال: لا، ولا أدنو منها، ولكن تأتيني جاريتُها كلّ ليلة فأحلِبُ لها عنزاً فتأتيها بلبنها.

فقال له: خذ خاتمي هذا، فإذا حلبتَ، فألقه في اللبن، فإنها ستعرفه، وإنك مُصيبٌ به خيراً لم يُصبه راعٍ قطُّ إن أنت فعلت ذلك.

فأخذ الراعي الخاتم. ولما راحت الجارية بالقدح، وحلب لها العنزَ، طرح الخاتم فيه؛ فانطلقت الجارية به وتركته بين يديها. فلما سكنت الرّغوة

(1) الشّلو: الجسد.

أخذته فشربته وكذلك كانت تصنع، ففرع الخاتم ثُنِيَّتها[1]، فأخذته واستضاءت بالنار فعرفته؛ فقالت للجارية: ما هذا الخاتم؟

قالت: ما لي به علم.

فأرسلتها إلى مولاها وهو في شرفٍ بنَجْران؛ فأقبل فزعاً؛ فقال لها: لِمَ دعوتني؟ قالت: ادْعُ عبدك راعي غنمك فدعاه، فقالت: سلْه أين وجد هذا الخاتم! قال: وجدته مع رجل في كهف خُبّان[2]. قال: ويقال كهف جبار. فقال: اطرحه في اللبن الذي تشربه أسماء فإنك مصيبٌ به خيراً، وما أخبرت منْ هو، ولقد تركته بآخر رمَق.

فقال لها زوجها: وما هذا الخاتم؟

قالت: خاتم مرقَّش، فأعجِل السّاعةَ في طلبه. فركب فرسه وحملها على فرس آخر، وسارا حتى طَرقاه من ليلتهما، فاحتملاه إلى أهلهما، فمات عند أسماء وقال قبل أن يموت:

سَرى لَيلاً خَيالٌ مِنْ سُلَيْمى
فأرّقَني وأصْحابي هُجُودُ
فبِتُّ أديرُ أمري كلّ حالٍ
وأذْكُرُ أهلَها وهمُ بعيدُ
نواعمُ لا تُعالج بؤسَ عيشٍ
أوانسُ لا تروح ولا تَرُودُ
سَكَنَّ ببلدةٍ وسكنتُ أخرى
وقُطِّعتِ المَواثقُ والعهودُ

---

(1) ثنيّتها: أسنان مقدم فمها.

(2) خُبّان: قرية باليمن في وادٍ يقال له وادي خبان قرب نجران.

فــمــا بــالــي أفِــي، ويُــخــان عــهــدي
ومــا بــالــي أُصــادُ ولا أصــيــدُ
ورُبّ أســيــلــةِ الــخَــدَّيــن بَــكْــرٍ
مُــنَــعَّــمَــةٍ لــهــا فَــرْعٌ وَجِــيــدُ[1]
وذو أُشــرٍ شَــتِــيــتُ الــنــبــتِ عَــذْبٌ
نــقــيُّ الــلــونِ بَــرّاقٌ بَــرودُ[2]
لــهــوتُ بــهــا زمــانــاً فــي شــبــابــي
وزارتــهــا الــنــجــائــبُ والــقَــصــيــدُ[3]
أنــاسٌ كــلّــمــا أَخــلَــقْــتُ وصــلاً
عــنــانــي مــنــهــمُ وصــلٌ جــديــدُ

ثمّ مات عند أسماء، فدُفِن في أرض مُرَاد.

وقال غيرُ أبي عمرو والمفضَّل:

أتى رجل من مُرَاد يُقال له قرنُ الغَزال، وكان مُوسِراً، فخطب أسماء وخطبها المرقَّش وكان مُمْلِقًا[4]؛ فزوّجها أبوها من المراديّ سرًّا؛ فَظَهر على ذلك مرقِّش فقال: لئن ظفرتُ به لأقتلنّه. فلما أراد أن يهتديها[5] خاف أهلُها عليها وعلى بعلها من مرقِّش، فتربّصوا بها حتى عَزَبَ[6] مرقِّش في إبله، وبنى المراديُّ بأسماء واحتملها إلى بلده.

(1) أسيلة: ناعمة، لها فرع وجيد. يريد: لها شعر أسود وعنق طويل.
(2) الأُشر: حِدّة ورقّة في أطراف الأسنان.
(3) النجائب: جمع نجيبة، وهي الكريمة من الإبل.
(4) المملق: الذي لا شيء له.
(5) اهتدى الرجل امرأته: جمعها إليه وضمّها.
(6) عزب: بعُد وغاب وخفي.

فلما رجع مرقِّش إلى الحيّ، رأى غلاماً يتعرَّق عظماً؛ فقال له: يا غلام ما حدث بعدي في الحيّ؟ وأوجس في صدره خيفةً لِمَا كان.

فقال الغلام: اهتدى المرادي امرأتَه أسماء بنت عوف. فرجع المرقِّش إلى حيّه فلبس لأمته[1] وركب فرسه الأغرّ، واتّبع آثار القوم يريد قتلَ المراديّ. فلما طلع لهم قالوا للمراديّ: هذا مرقِّش، وإن لقيك فنفسُك دون نفسه. وقالوا لأسماء: إنه سيمرّ عليك، فأطلعي رأسَك إليه واسْفِري، فإنه لا يرميك ولا يضرّك، ويلهو بحديثك عن طلب بعلك، حتى يلحقَه إخوته فيردّوه. وقالوا للمراديّ: تقدّم فتقدّم.

وجاءهم مرقّش. فلما حاذاهم أطْلَعَت أسماءُ من خِدْرها ونادته، فَغَضَّ[2] من فرسه وسار بقربها، حتى أدركه أخواه أَنَسٌ وحَرْمَلة، فعذَلاه وردّاه عن القوم. ومضى بها المُراديّ فألحقها بحيّه. وضنى[3] مرقِّش لفراق أسماء. فقال في ذلك:

أمِـــن آلِ أســمــاءَ الــرســومُ الــدَّوارسُ
تُــخـطِّـط فــيـهـا الـطـيـرُ قَـفْـرٌ بَـسـابـسُ

وهي قصيدة طويلة. وقال في أسماء أيضاً:

أَغـالِـبُـكَ الـقـلـبُ الـلَّـجـوجُ صَـبـابـةً
وشـوقـاً إلـى أسـمـاءَ أم أنـت غـالـبُـهْ
يَـهـيـمُ ولا يَـغـيـا بـأسـمـاءَ قـلـبُـه
كـــذاكَ الـــهـــوى إمـــرارُه وعَـــواقِـــبُـــهْ

(1) اللأمة: الدرع.

(2) غضّ الشيء: نقصه. وغضّ من فرسه: جعلها تخفّ من ركضها.

(3) ضنى: مرض.

أيُلحى آمرؤ في حبِّ أسماء قد نأى
بغَمْزٍ من الواشين وأزوَرَّ جانبهْ
وأسماءُ هَمُّ النّفس إن كنتَ عالماً
وبادي أحاديث الفؤادِ وغائبُهْ
إذا ذكرَتْها النفسُ ظَلْتُ كأنني
يُزعزعني قَفْقافُ وِرْدٍ وصالبُهْ[1]

* * *

(1) الوِرد: من أسماء الحمى. وقفقافة: اضطراب الحنكين واصطكاك الأسنان. وصالبه: شدّة حرارته مع رعدة.

ألا حَبَّذا وَجْهٌ تُريكَ بياضَهُ

ومُنْسَدِلاتٌ كالمَثاني فواحِما

وإنّي لأَسْتَحْيي فُطَيْمَةَ جائعاً

خميصاً، وأسْتَحْيي فُطيْمَةَ طاعما

أفاطِمَ لو أنَّ النِّساءَ بِبَلْدَةٍ

وأنْتِ بأخرى لابْتَغَيْتُكِ هائما

المرقش الأصغر



المرقِّش الأصغر

(نحو 50 ق.هـ/ نحو 570م)

ربيعة بن سفيان بن سعد بن مالك، شاعر جاهلي، من أهل نجد. كان أجمل الناس وجهاً ومن أحسنهم شعراً. وهو ابن أخي المرقّش الأكبر، وعم طرفة بن العبد. أشهر شعره حائيته، وهي إحدى المجَمْهرات، ومطلعها:

«أمِنْ رَسْمِ دارٍ ماءُ عينيكَ يسفحُ»

وجمع الدكتور نوري القيسي ما وجد من شِعْره في «ديوان». ومن الأمثال: «أتْيَمُ مِنَ المُرَقِّش» يعنون «الأصغر» هذا. قيل: إنه عَشِق فاطمة بنت المنذر (الملك) فبلغ من وَجْده بها أن قطع إبهامَه بأسنانه، وقال:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الـمـرءَ يَـجْـذُمُ كَـفَّـهُ
ويَجْشُم مِنْ لَومِ الصَّديق المجاشِما[1]

* * *

(1) خير الدين الزركلي: الأعلام 3/ 16.

أخباره
كما جاءت في كتاب
«الأغاني»

قال أبو الفرج الأصفهاني[1]:

فهو - على ما ذكر أبو عمرو- رَبيعةُ بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضُبيعة. والمرقِّش الأكبر عمّ الأصغر، والأصغر عمّ طَرَفة بن العبد. قال أبو عمرو: والمرقِّش الأصغر أشعر المرقِّشَين وأطولهما عُمراً. وهو الذي عشِق فاطمة بنت المنذر، وكانت لها وليدةٌ يقال لها بنت عَجْلان، وكان لها قَصْر بكاظمة[2] وعليه حَرَس.

وكان الحرس يَجُرّون كل ليلة حولَه الثياب، فلا يطؤه أحد إلا بنت عجلان. وكان لبنت عجلان في كلّ ليلة رجل من أهل الماء يبيت عندها. فقال عمرو بن جَنَاب بن مالك لمرقِّش: إنّ بنت عجلان تأخذ كلَّ عشيّة رجلاً ممن يُعجبها فيبيت معها.

وكان مرقِّش تَرْعِيَةً[3] لا يفارق إبلَه، فأقام بالماء وترك إبلَه ظمأى، وكان من أجمل الناس وجهاً وأحسنهم شَعْراً. وكانت فاطمة بنتُ المنذر تقعد فوق القصر فتنظر إلى الناس. فجاء مرقِّش فبات عند ابنة عَجْلان؛ حتى إذا كان من الغد تجرّدت عند مولاتها. فقالت لها: ما هذا بفخذيك؟ - وإذا نُكَتٌ[4] كأنها التين وكآثار السِّيّاط من شدّة حَفْزه[5] إياها عند الجماع.

---

(1) الأغاني 6/ 145 - 148.

(2) كاظمة: على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة.

(3) رجل ترعية: يجيد رعيّة الإبل أو صناعته.

(4) النكتة: النقطة السوداء في الأبيض أو البيضاء في الأسود. جمع نُكت ونِكات.

(5) حفزه: دفعه من خلف.

قالت: آثار رجل بات معي الليلة. وقد كانت فاطمةُ قالت لها: لقد رأيت رجلاً جميلاً راحَ نحونَا بالعشِيّة لم أره قبلَ ذلك.

قالت: فإنه فتىً قعد عن إبله وكان يرعاها، وهو الفتى الجميل الذي رأيته، وهو الذي بات معي فأثر فيّ هذه الآثار.

قالت لها فاطمة: فإذا كان غدٌ وأتاك فقدِّمي له مِجْمَراً[1] ومُرِي به أن يجلس عليه وأعطيه سِواكاً، فإن استاك به أو ردّه، فلا خير فيه، وإن قعد على المجمر أو ردّه فلا خير فيه. فأتته بالمجمر فقالت له: اقعُد عليه، فأبى، وقال: أدنيه مني، فدخّن لحيته وجبّته وأبى أن يقعد عليه، وأخذ السواك فقطع رأسه واستاك به.

فأتت ابنةُ عجلان فاطمة فأخبرتها بما صنع، فازدادت به عجباً وقالت: ائتيني به. فتعلقتْ به كما كانت تتعلق، فمضى معها وانصرف أصحابه. فقال القوم حين انصرفوا: لشَدَّ ما علِقتْ بنتُ عَجْلان المرقِّشَ! وكان الحرس ينثرون التراب حول قُبّة فاطمة بنت المنذر، ويَجُرُّون عليه ثوباً حين تُمسي ويحرُسونها، فلا يدخل عليها إلا ابنةُ عجلان؛ فإذا كان الغد بعث الملكُ بالقافة[2] فينظرون أثرَ من دخل إليها ويعودون فيقولون له: لم نَرَ إلا أثر بنت عجلان.

فلما كانت تلك الليلة حملتْ بنتُ عجلان مرقِّشاً على ظهرها وحزَمته إلى بطنها بثوب، وأدخلته إليها فبات معها. فلما أصبح بعث الملك بالقافة فنظروا وعادوا إليه فقالوا: نظرنا أثر بنت عجلان وهي مُثْقَلة. فلبث بذلك حيناً يدخل إليها.

---

(1) أجمره: بخّره بالطيب.

(2) القائف: الذي يعرف النَّسب بفراسته ونظره إلى أعضاء المولود.

فكان عمرو بن جَنَاب بن عوف بن مالك يرى ما يُفعل ولا يَعرف مذهبه. فقال له: ألم تكن عاهدتَني عهدا لا تكتمني شيئاً ولا أكتمك ولا نتكاذب؟! فأخبره مرقِّشٌ الخبرَ؛ فقال له: لا أرضى عنك ولا أكلّمك أبداً أو تُدخلَني عليها، وحلف على ذلك.

فانطلق المرقِّش إلى المكان الذي كان يواعد فيه بنتَ عجلان فأجلسه فيه وانصرف وأخبره كيف يصنع، وكانا متشابهين غير أن عمرو بن جناب كان أَشْعر، فأتته بنت عجلان فاحتملته وأدخلته إليها وصنع ما أمره به مرقِّش.

فلما أراد مباشرتها، وجدتْ شعرَ فخذيه فاستنكرته، وإذا هو يُرْعَد[1]؛ فدفعته بقدمها في صدره وقالت: قبَّح الله سرًّا عند المُعَيْدي. ودعت بنتَ عجلان فذهبت به، وانطلق إلى موضع صاحبه. فلما رآه قد أسرع الكَرَّة ولم يلبث إلا قليلاً، علم أنه قد افتضح، فعَضَّ على إصبعه فقطعها. ثم انطلق إلى أهله وترك المال الذي كان فيه - يعني الإبل التي كان مقيماً فيها- حياءً مما صنَع. وقال مرقش في ذلك:

ألا يا اسلَمى لا صُرمَ لي اليوم فاطما
ولا أبداً ما دام وصلُكِ دائما
رمتك ابنةُ البَكْريّ عن فرع ضالَةٍ
وهُنّ بنا خُوصٌ يُخَلْن نعائما[2]
تراءت لنا يومَ الرحيلِ بواردٍ
وعَذْبِ الثنايا لم يكن مُتراكما[3]

---

(1) الرَغدة: الاضطراب يكون من الفزع وغيره.

(2) الضال من السدر: ما لم يشرب الماء. الخُوص: الإبل الغائرة العيون من جهد السفر. النعائم: جمع نعامة.

(3) الوارد من الشعر: الطويل. والفم المتراكم: المتقارب.

أرَتْك بذات الضّالِ منها معاصماً
وخدًّا أسِيلاً كالوذيلةِ ناعِما[1]

صحا قلبُه عنها عَلى أنّ ذِكرةً
إذا خطَرت دارت به الأرضُ قائِما

ألا حبّذا وجهٌ تُريك بياضَه
ومُنْسَدِلاتٌ كالمثاني فَواحِما[2]

وإني لأستَحيي فُطَيمةَ جائعاً
خميصاً وأستَحيي فُطَيمةَ طاعِما

وإني لأسْتَحْييكِ والخَرْقُ بيننا
مَخافَةَ أن تَلْقَى أخاً لي صارِما[3]

وإني وإن كلَّت قَلُوصي لَراجِمٌ
بها وبنَفْسي يا فُطيمَ المَراجِما

ألا يا أسلمي ثم أعلمي أنّ حاجتي
إليك فرُدّي من نوالِكِ فاطِما

أفاطمَ لو أنّ النساءَ ببَلْدةٍ
وأنتِ بأُخرى لابتَغَيْتُكِ هائِما

متى ما يَشأْ ذو الوُدّ يَصرِمْ خليلَه
ويَغْضَبْ عليه لا محالَةَ ظالِما

---

(1) الوذيلة: السبيكة من الفضة.

(2) منسدلات: أي ذوائب من الشعر مسترخية. المثاني: الحبال. والفواحم: السود.

(3) الخرْقُ: الفلاة الواسعة.

وآلـى جَـنـابٌ حِـلْـفَـةً فـأطَـعْـتُـه
فَـنَـفـسـك وَلِّ الـلَّـوْمَ إن كـنـتَ نـادمـا
فـمـن يَـلْـقَ خـيـراً يَـحْـمَـدِ الـنـاسُ أمـرَه
ومـن يَـغْـوِ لا يَـعْـدَمْ عـلـى الـغـيِّ لائِـمـا
ألـم تـرَ أنّ الـمَـرْءَ يَـجْـذِمُ كَـفَّـهُ
ويَـجْـشَـمُ من لَوْمِ الصَّـديـقِ الـمَـجـاشِـمـا[1]
أمـن حُـلْـمٍ أصْـبَـحْـتَ تـنـكُـتُ واجِـمـا
وقـد تَـعْـتـري الأحـلامُ مَـنْ كـان نـائِـمـا[2]

* * *

(1) يجذم: يقطع. ويجشم: يركب المكروه.

(2) نكت في الأرض: خطط فيها بعود.

قصص حبّ
من كتاب
«مصارع العشاق»

عبد الملك والغلام العاشق(1)

كان عبد الملك يجلسُ في كلِّ أسبوع يومين جلوساً عامًّا، فبينما هو جالس في مُستشرَفٍ له، وقد أُدخِلَت عليه القِصَص، إذ وَقعت في يَده قصّةٌ غيرُ مُتَرجَمةٍ، فيها: إنْ رَأى أميرُ المؤمنينَ أن يأمُرَ جارِيته فلانه تغنيني ثلاثة أصوَاتٍ ثمّ يُنفذُ فيَّ ما شاء من حُكمه. فاستشَاطَ من ذلك غضباً، وقال: يا رَباح عليّ بصاحب هذه القصّة. فخَرَجَ النَّاسُ جميعاً، وأُدخلَ عليه غلامٌ من أجمَلِ الفِتيان وأحسَنهم، فقالَ له عبد الملك: يا غلام! أهذه قصّتُك؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين!

قال: وما الذي غرَّكَ مني؟ وَاللهِ لأمثِّلَنَّ بك، وَلأرْدَعَنَّ بك نُظَرَاءَك من أهل الجسارةَ. عليَّ بالجارية! فجيء بها كأنّها فِلقةُ قمرٍ، وبيدِها عودٌ، فطُرحَ لها الكرسيُّ، فجلست، فقال عبد الملك: مُرْها يا غُلام!

فقال هلا: غنّيني يا جارِيةُ بشِعرِ قيس بن ذَريح:

لقد كنتِ حسبَ النفسِ لوْ دامَ وِدُّنا،
وَلَكِنَّما الدُّنْيا مَتاعُ غُرُورِ
وكُنّا جَميعاً قبلَ أنْ يَظهَرَ الهَوى
بِأنْعَمِ حَالَيْ غِبْطَةٍ وسُرُورِ

---

(1) مصارع العشاق 2/ 101.

فَما بَرِحَ الواشُونَ حَتّى بَدَتْ لَنا
بُطُونُ الهَوى مَقلُوبَةً لِظُهُور

فغنَّت، فخرَجَ الغُلامُ بجميعِ ما كان عليه من الثّيابِ تخريقاً، ثمّ قال له عبد الملك: مُرْها تُغَنِّك الصّوْتَ الثاني! فقال: غنِّيني بشِعرِ جميلٍ:

ألا ليتَ شِعرِي هَلْ أبِيتَنَّ لَيلَةً
بِوادِي القُرى إنّي إذاً لَسَعِيدُ
إذا قُلْتُ ما بي يا بُثَيْنَةُ قاتِلي
مِن الحُبِّ قالت: ثابتٌ ويزيدُ
وإنْ قلتُ رُدّي بعض عقلي أعِشْ بِهِ
مَعَ النّاسِ قالت: ذاكَ منك بَعيدُ
فَلا أنا مَرْدُودٌ بما جِئتُ طالباً،
وَلا حُبُّها فِيما يَبِيدُ يَبِيدُ
يَموتُ الهَوى مني إذا ما لَقِيتُها،
وَيَحيا إذا فارَقتُها، فَيَعُودُ

قال: فغنَّتهُ الجارية، فسقَطَ الغلامُ مغشِيًّا عليه ساعةً، ثمّ أفاقَ، فقال له عبد الملك: مُرْها فلتغنِّك الصّوْتَ الثالثَ فقال: يا جارية غنِّيني بشعر قيس بن الملوَّحِ المجنون:

وفي الجيرةِ الغادينَ من بَطنِ وَجرَةٍ
غَزالٌ غَضيضُ المُقلَتينِ رَبيبُ
فَلا تَحسَبي أنَّ الغَريبَ الذي نأى
وَلكِنَّ مَن تَنأينَ عَنهُ غَريبُ

فغَنَّته الجارية، فطرَحَ الغلامُ نفسَه من المُستَشرَفِ فلم يَصِل إلى الأرض

حتّى تقطّعَ، فقال عبد الملك: وَيحَه لقد عَجَّلَ على نَفسِه، ولقد كان تَقديرِي فيه غير الذي فَعل. وَأمرَ، فأُخرجتِ الجاريةُ من قصرِه، ثمّ سأل عن الغلام، فقالوا: غرِيبٌ لا يُعرَفُ إلاّ أنّه منذ ثلاثٍ يُنادي في الأسوَاق ويَدُهُ على رَأسه:

غـداً يـكـثُـرُ الـبـاكـونَ مِـنّـا وَمِـنْـكُـمُ،
وَتَـــزْدادُ دارِي مـــن دِيـــارِكُـــمُ بُـــعـــدا

قلت: نعم! قال: يا غلام ادفَع إليه الذي معك! فقلت: وما هذا؟

قال: ثلاثمائة دينار. قلت: والله لا أقبلها، أو أعرِفَك. قال: أنا إبراهيم ابن المهدي.

* * *

جناية أسد على عاشقين(1)

حدَّث أحدهم قال:

خرَجتُ في نِشدان ضَالَّةٍ لي، فآوَاني المَبيتُ إلى خَيمَةِ أعرَابي، فقلت: هل من قِرىً؟ قال: لي: انزِل! فنزَلتُ، فثَنى لي وِسادَةً، وأقبَلَ عليَّ يحدّثني، ثمّ أتاني بِقرًى، فأكلت.

فبَينا أنا بينَ النّائمِ وَاليَقظان، إذا بفتاة قد أقبَلت لم أرَ مثلها جَمالاً وحُسناً، فجَلَست، وجَعَلت تُحَدِّثُ الأعَرابي ويحدِّثُها، ليس غير ذلك، حتى طَلَعَ الفجرُ، ثمّ انصَرَفت، فقلت: وَالله لا أبرَحُ مَوْضِعي هذا، حتّى أعرِفَ خَبرَ الجارِية والأعرَابي.

قال: فمَضَيتُ في طَلَبِ ضَالّتي يَوماً، ثمّ أتيتُه عند اللّيل، فأتى بقِرًى، فبَينا أنا بَينَ النائمِ وَاليَقظان، وقد أبطأتِ الجارية عن وَقتِها، قَلِقَ الأعرَابي، فكان يَذهَبُ ويجيء وهوَ يَقول:

ما بالُ مَيَّةَ لا تأتي لِعادَتِها،
أعاجَها طَرَبٌ أمْ صَدَّها شُغُلُ
لَكِنَّ قَلبيَ عَنكُمُ لَيس يَشغَلُهُ
حتّى المماتِ وَما لي غيرُكُم أمَلُ

(1) مصارع العشاق 2/ 104.

لَوْ تَعلَمينَ الذي بي مِنْ فِراقِكُمُ

لَما اعتَذَرْتِ ولا طابت لكِ العِلَلُ

نَفسي فداؤكِ قد أحلَلْتِ بي سَقَماً

تكادُ من حرِّهِ الأعضاءُ تَنفصِلُ

لَوْ أنّ غاديةً منهُ على جَبَلٍ،

لَمادَ وَانهَدَّ من أركانِهِ الجَبَلُ

ثمّ أتاني فأنبَهني، ثمّ قال لي: إنّ خلّتي التي رَأيتَ بالأمس، قد أبطأت عليَّ، وبَيني وبينها غَيضَةٌ، وَلَستُ آمن السَّبعَ عليها، فانظرْ ما هَهنا حتى أعلم عِلمَها، ثمّ مضى فأبطأ قليلاً، ثمّ جاء بها يَحمِلها، وإذا السبعُ قد أصَابَها، فَوَضَعها بينَ يديَّ، ثمّ أخَذَ سيفَه، ومضى فلم أشعر إلاّ وقد جاء بالأسد يجرُّه مقتولاً، ثمّ أنشأ يقول:

ألا أيّها اللّيثُ المُضِرّ بنفسِهِ،

هُبلتَ لقد جَرَّتْ يداك لكَ الشّرّا

أخَلّفتَني فَرْداً وَحِيداً مُدَلّهاً،

وَصَيَّرْتَ آفاقَ البِلادِ بِها قَبرا

أأصحَبُ دهراً خانَني بِفِراقِها؟

مَعاذَ إلهي أن أكونَ بِها بَرّا[1]

ثمّ أقبَلَ عليَّ فقال: هذه ابنة عمّي كانت من أحبِّ الناس إليّ، فمنَعني أبوها أن أتزوّجها، فزَوَّجَها رَجلاً من أهل هذه الأبيات، فخرَجتُ من مالي كلّه وَرَضيتُ بالمقام ههنا على ما تَرَى، فكانت إذا وجَدَت خلوَة أو غَفلة من زَوجِها أتَتني، فحَدَّثَتني وحَدَّثتُها، كما رَأيتَ ليسَ شيء غيرَه، وقد آليتُ على

(1) أراد: أن لا أكونَ بها برًّا، فحذف «لا» ليستقيم الوزن.

نفسي أن لا أعيشَ بعدَها، فأسألُك بالحُرْمةِ التي جَرَت بَيني وبَينك، إذا انا مُتُّ فلفِّفني وإيّاها في هذا الثوب، وَادفنّا في مكاننا هذا، واكتُب على قبرِنا هذا الشعر:

كُنّا على ظَهرِها وَالدَّهرُ في مَهَلٍ،
وَالعَيشُ يَجمَعُنا وَالدّارُ وَالوَطنُ
فَفَرَّقَ الدّهرُ بِالتّصريفِ أُلفَتَنا،
فَاليَوْمَ يَجمَعُنا في بَطنِها الكَفَنُ

ثمّ اتّكأ على سَيفه، فخرَجَ من ظَهرِه فسقَط ميتاً، فلففتهما في الثوب وحَفَرْتُ لهما، فدَفَنتُهما في قبرٍ وَاحد وكتبتُ عليه كما أمرَني.

* * *

يسألني عن علَّتي وهو علّتي[1]

عَلِقَت فتاةٌ من العرَب بفتى من قَومِها، وكان الفَتى عاقلاً فاضلاً، فجَعَلتْ تُكثرُ التَردّدَ إليه، تسأله عن أُمورِ النِّساء، وَما في قَلبها إلا النَّظَرُ إليه وَاستماعُ كلامه، فلمّا طال ذلك عليها، مَرِضَت وتَغَيَّرت، واحتالَت في أن خَلا لها وَجهُهُ وَقتاً، فتَعرَّضَت له ببعضِ الأمر، فصرَفها، ودَفَعَها عنه، فتَزَايَد بها المَرَضُ، حتى سَقَطت على الفِرَاش، فقالت له أمه: إنّ فلانة قد مَرِضَت، وَلها عَلينا حقّ.

قال: فعُديها، وقولي لها: يَقولُ لك ما خبرُك؟ فصارَت إليها أمّه، فقالت لها: ما بك؟

قالت: وَجعٌ في فُؤاديَ هوَ أصْلُ عِلّتي.

قالت: فإنّ ابني يَقول لك ما عِلّتُك؟ فتنفّسّتِ الصّعَداء، وقالت:

يُسائلُني عن عِلَّتي وَهْوَ عِلَّتي
عَجِيبٌ مِنَ الأنباءِ جاءَ بِهِ الخَبَرْ

فانصرَفَت أمّه إليه، فأخبرَته، وقالت له: قد كنتُ أحبّ أن نسألها المَصيرَ إلينا لنقضيَ حقّها وَنَلي خِدمَتَها.

قال: فسَليها ذلك.

---

(1) مصارع العشاق 2/ 108.

قالت: قد أرَدتُ أن أفعلَه ولكن أحببتُ أن يكون عن رَأيك. فمَضَت إليها، فذكَرتُ لها ذلك عنه، فبكت وقَبِلت، ثمّ أنشأت تقول:

يُباعِدُني عَنْ قُرْبِهِ وَلِقائِهِ،
فلمّا أذابَ الجِسْمَ مني تَعَطَّفا
فَلَسْتُ بآتٍ مَوْضِعاً فيه قاتلي،
كفاني سَقاماً أن أموتَ كذا كفى

فألحّت عليها؛ فأبَت. وتَرَامَت العِلَّةُ بها، وتَزَايد المَرَضُ حتى ماتَت.

* * *

عاشق يقتل حبيبته وينتحر[1]

خرَجَ ناس من بني حنيفة يتَنزّهون فبَصُرَ فتَىً منهم بجارِية فعشقها، فقال لأصحابه: انصرِفوا حتى أُقيمَ وَأرْسلَ إليها، فطلبوا إليه أن يَكُفّ، وَأن يَنصَرِفَ فأبى، وَانصَرَفَ القَوْمُ، وجعلَ يُرَاسل الجارية حتى وَقعَ في نَفسِها، فأقبَلَ في لَيلةٍ إضحيان[2] متقلّداً قوساً، وَالجارِيةُ نائمة بينَ إخوَتها، فأيقَظَها، فقالت: يا فاسِقُ انصَرِفْ وَإلاّ، وَاللهِ، أيقظتُ إخوَتي، فقاموا إليك، فقتَلوك.

فقال: وَالله لَلْمَوْتُ أهوَنُ عليّ ممّا أنا فيه، ولكن أعطيني يَدك أضَعُها على فؤادي وَأنصَرِف. فأعطته يَدَها، فوَضَعَها على فؤاده وصَدرِه، ثمّ انصَرَف.

فلمّا كانت اللّيلةُ القابلةُ أتاها، وهيّ في مثلِ حالها، فأيقظَها، فقالت له مثل مقالتها الأولى، وَرَدّ هوَ عليها مثل قوْلِها، وقال: لك اللهُ عليّ إن أمكَنتِني من شفَتيك أرتَشفُهما أن انصرِف، ثمّ لا أعودَ إليك، فأمكنته من شَفَتَيها ثمّ انصرَفَ، ووَقَعَ في نَفسِها مثلَ النّارِ، ونَذِرَ به الحيُّ، فقالوا: ما لهذا الفاسق في هذا الحيّ ذاهباً وجائياً؟ انَهضُوا بنا حتى نُخرِجَه. فأرْسَلت إليه أنّ القوْمَ يأتونَك اللّيلةَ، فالحَذَرَ. فلمّا أمسَى خرَجَ ناحيةً عن الحيّ، فقعدّ على مَرْقبٍ له ومعه قوسُه وأسهُمُه، وكان أحد الرّماة، وأصَابَ الحيَّ من النهارِ مطرٌ، فلَهَوْا عَنه، فلمّا كان في آخر اللّيل ذهَب السّحابُ، وَطَلَعَ القمرُ، فخَرَجت تُرِيدُه،

---

(1) مصارع العشاق 2/ 143.

(2) اضحيان: لا غيم فيها؛ مقمرة.

وقد أصَابَها النَّدى، فنَشرَت شعرَها، وكانت معها جارِيةٌ من الحيّ، فقالت: هل لكِ في عبّاس، وهوَ اسمه، فخَرَجتا تمشِيانِ، فنظرَ إليهما، وهوَ على المَرقَب، فظنّ أنّهمُا ممّن يطلُبه، فرَمى بسَهمه فما أخطأ قلبَ الجارِية، ففَلَقَه، وصاحتِ الجارية. التي كانت مَعها، وَانحَدَرَ من المرْقَبِ الذي كانَ عليه، فإذا هوَ بالجارِيةِ متَضَمّخَة بدَمِها، فقال عند ذلك، وَهوَ يَبكي:

نَـعَـبَ الـغُـرابُ بِـمـا كَـرِهْـ
ـتُ وَلا إزالَـةَ لـلـقَـدَرْ
تَـبْـكـي، وَأنـتَ قَـتَـلْـتَـهـا،
فَـاْصْـبِـرْ، وَإلّا فـاْنْـتَـحِـرْ

قال: ثمّ وَجأ نفسَه بمشاقصِه[1]، حتّى مات. وجاء الحيُّ فوَجدوهما ميتين، فدفنوهما في قبر واحد.

* * *

(1) وجأ: غرز. المشاقص، الواحد مشقص: سهم فيه نصل عريض.

أُم البنين ووضَّاح اليمن(1)

كانت عند يزيد بن عبد الملك بن مروان أُمّ البَنين بنتُ فلان، وكان لها من قلبه موضع، فقُدم عليه من ناحية مِصرَ بجوَهر له قَدْرٌ وقيمة، فدعا خصِيًّا له، فقال: اذهَب بهذا إلى أمّ البنين وقل لها: أُتِيتُ به الساعة، فبعثتُ به إليك: فأتاها الخادمُ، فوَجدَ عندها وَضَّاح اليَمن، وكان من أجمل العرب، وأحسنه وجهاً، فعشِقَته أمّ البنين، فأدخلته عليها، فكان يكون عندها، فإذا أحسّت بدُخول يزيد بن عبد الملك عليها أدْخَلته في صُندوق من صناديقها، فلمّا رَأت الغُلام قد أقبل أدخَلته الصّندوقَ، فرآه الغلامُ، ورأى الصندوق الذي دخلَ فيه، فوَضَعَ الجوهر بين يدَيها، وأبلغها رسالة يزيد، ثمّ قال: يا سيدتي هَبي لي منه لؤلؤةً!

قالت: لا ولا كرامةَ.

فغَضبَ وجاء إلى مولاه، فقال: يا أميرَ المؤمنينَ إني دخلتُ عليها وعندَها رَجلٌ، فلمّا رَأتني أدخَلتْه صُندوقاً، وهو في الصّندوق الذي من صِفَتِه كذا وكذا، وهو الثالث أو الرابعُ. فقال له يزيد: كذَبتَ، يا عدوّ الله!

قال: فأمهلَ قليلاً، ثمّ قامَ، فلبسَ نعله، ودخل على أمّ البنين، وهي تَمتَشِطُ في خزانتِها، فجاء حتى جلس على الصّندوق الذي وصَفَ له الخادمُ فقال لها: يا أمّ البنين! ما أحبّ إليك هذا البيت؟

(1) مصارع العشاق 2/ 192.

قالت: يا أميرَ المؤمنين ادخلُه لحاجتي وفيه خزانتي فما أردتُ من شيء أخذتُه من قُرب.

قال: فما في هذه الصّناديق التي أراها؟

قالت: حَلْيي، وَأثاثي.

قال: فهَبي لي منها صندوقاً.

قالت: كلّها يا أميرَ المؤمنين لك.

قال: لا أريد إلاّ واحداً، ولك عليّ أن أعطيك زِنَته وزنة ما فيه ذهباً.

قالت: فخذْ ما شئت.

قال: هذا الذي تحتي.

قالت: يا أمير المؤمنين عدِّ عن هذا، وخذْ غيره، فإنّ لي فيه شيئاً يقعُ بمحبّتي.

قال: ما أريد غيره.

قالت: هو لك.

قال: فأخذه ودعا الفرّاشين فحملوا الصّندوقَ، فمضى به إلى مجلسه، فجلس، ولم يفتحه، ولم ينظر ما فيه، فلمّا جَنّه اللّيل دَعا غلاماً له أعجَميًّا فقال له: استأجرْ أُجراء غُرَباء ليسوا من أهل المِصرِ.

قال: فجاءه بهم وأمرَهم، فحفروا له حَفيرة في مجلسه، حتى بلغوا الماء، ثمّ قال: قدّموا لي الصّندوقَ. فأُلقي في الحفيرة، ثمّ وَضَعَ فمَه على شفيرة، فقال: يا هذا! قد بلغنا عنك خبر، فإن يكُ حقًّا، فقد قطَعنا أثَره، وَإن يكُ باطلاً، فإنّما دفنّا خشباً.

ثم أهالوا عليه التُّراب حتى استوى، قال: فلم يُرَ وضّاح اليمن حتّى الساعة. قال: فلا، والله، ما بان لها في وجهه ولا في خلائقه شيء حتى فرّق الموتُ بينهما.

الفهرس

مجنون ليلى